

البَابُ الثَّانِي

أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدي
ومعهن «مارية القبطية» أم إبراهيم عليه السلام

النَّبِيُّ أَوْلَى

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا
إِلَى أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا

صدق الله العظيم

(سورة الأحزاب - ٦)

(١)

خديجة بنت خُوَيْلِد
أم المؤمنين الأولى
ووزير النبي صلى الله عليه وسلم

«... والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي
حين كفر الناس، وصدقني إذ كذبتني
الناس، وواستني بماها إذ حرمني الناس،
ورزقني منها الله الولد دون غيرها من
النساء»

- من حديث السيدة عائشة رضي الله
عنها، مرفوعاً. أخرجه الإمام أحمد في
مسندها، وابن عبد البر في ترجمتها
بالاستيعاب.

ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه، في بيئة تعد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات، لكنه كان يجد طعم الحياة في مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة.

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده، وترده إلى لحظة طواها الزمن منذ كان فيها بين السادسة والسابعة من عمره، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين «مكة ويثرب»، أمام أمه «آمنة» والحياة تتسرب من جسدها رويدا، ثم تنطفئ إلى الأبد...

ثمانية عشر عاما، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية «بالأبواء»، ضائع الحيلة مهيض الجناح، لا يملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام، بعد أن هالوا عليها الرمال.

وربما شغلته شواغل العيش حيناً عن أشجانه، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذي غال أعز من له، أمام عينيه وبين يديه، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مستثار الحزن، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد، في طريق الشمال، ليطفو بمرقد الثاوية في جوف الصحراء، ثم ينثنى مثقلا بالأسى والشجن.

ما أكثر ما كان يمر في مكة بالبيت المهجور الذى ضمه وأمه زمنا، ثم أوحش من بعدها وخلا..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعى خارج مكة، فإذا حان المساء وأن له أن يثوب إلى منزله، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب، وحيدا محزونا مضاعف اليتيم، يتبع جاريته «بركة» وإني الخطو صامتا واجما، وهى تسعى به إلى بيت جده الشيخ «عبد المطلب».

لقد حاول الجد الرحيم أن يزود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه.

وجاهد - عامين كاملين - ليضمده بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز!

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الصبى فانتزع أباه ثم أمه، عاد من جديد فطوف بحى بنى هاشم، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب، وينذره بالرحيل.

ووقف اليتيم الهاشمى مرة ثانية، يرقب الحياة وهى تنطفئ فيمن كان له أباً بعد أبيه...

وأصغى فى حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر، وهو يدين إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه بمحمد، ابن أخيه «عبد الله».

ثم يمضى...

وانتقل الصبى من بعده إلى منزل جديد، وألقى لدى عمه أباً ثالثاً، لكنه ظل يفتقد الأم.

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين، ينزع نحو مرقدها الأخير
في «الأبواء»...

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم في ملاعب حداثتهم، أن يحو من
سمعه صدى الحشجة الرهيبة التي صَكَتْ أذنيه وقلبه في جوف البيداء.
ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول «البيت العتيق»
في «أم القرى» أن تطوى في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع
لاحتضار أمه وموتها، قرب «الأبواء»^(١).

وهذا هو يقف في المساء الساجي عند مدخل مكة شارد البال،
والكون من حوله موحش واجم، يلفه الغلس برداء أريد، ويتنفس فيه
الصمت العميق شجنا وإعياء.

وتتكاثف الظلمة من حوله، فيجمع نفسه في جهد، ويأخذ طريقه إلى
منزل عمه، وفي نفسه إحساس مرهف بفراق وشيك، فقد آن له أن يغادر
هذا المنزل الذي آواه سبعة عشر عاماً، وحسبُ العمُّ ما يحمل من أعباء
بنيه الكثر...

ولكن إلى أين؟...

إلى «الشام» مؤقتاً كما أراد له عمُّه في صباح يومه ذاك، فلقد حدثه في
مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير، وقال له فيما قال:
«يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وألحَّتْ
علينا سنونٌ منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه غيرُ قومك قد حضر

(١) بتفصيل في كتابنا (أم النبي ﷺ).

خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالا يتجرون في مالها ويصيرون
 منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك
 وطهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود...
 وقد بلغني أنها استأجرت فلانا ببيكرين، ولسنا نرضى لك بمثل
 ما أعطته، فهل لك في أن أكلمها؟»^(١).

قال «محمد»: ما أحببت يا عم.

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل؟
 إذن فليرحل، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى في ضمير الغيب.

(١) ابن سعد، عن الواقدي (١٣٠/١) وابن سيد الناس في (عيون الأثر ٥٧/١) والذي في
 السيرة الهشامية ١٩٩/١، والسمط الثمين للمحب الطبري ص ١٣ طبعة حلب - وتاريخ
 الطبري، ١٩٦/٣، أن السيدة خديجة هي التي عرضت عليه، مباشرة، أن يخرج في مالها إلى الشام
 تاجرا.

لقاء

القافلة تغذ السير نحو «أم القرى» عائدة من رحلة الصيف إلى الشام، والحدادة يهزجون بأغانهم التي تَعِدُّ الإبل بالراحة والظل، وتمنى الراكب بالأنس في لقاء الأهل والأحباب.

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حاملة منذ بلغوا «مرَّ الظهران» على مقربة من «مكة» واشربأت أعناقهم إلى معالمها التي لاحت لهم من بعيد، تجذبهم في هلفة واشتياق...

لكنه وحده، من بين هؤلاء جميعا، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التي حاجها مرور القافلة قريبا من «الأبواء» في طريق عودتها إلى «مكة».

وعبثا حاول تابعه المرافق، أن يغريه بالتطلع إلى «أم القرى» أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة، التي اختارته ليخرج في مالها إلى الشام، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله...

وقال «ميسرة»:

«أسرع أنا إلى سيدتي فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف ذلك لك»^(١).

(١) السيرة، وطبقات ابن سعد (١/١٣٠).

فتركه «محمد» يمضى وفرغ لتأملاته:
 أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام، والحُدَاة يبنون الركب
 بالأنس في لقاء العشيرة والأحباب!...
 وكرَّ بصره راجعا إلى وراء، يتبع آثار طيفٍ من أمه «آمنة»، بدا كأنما
 يملأ فضاء الصحراء...
 وتذكر رحلته الأولى، في السادسة من عمره، عائدا من «يثرب» بغير
 أم!

* * *

ثم علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التي
 أناخت على ثرى «مكة» مطمئنة، فمضى «محمد» على بعيره قاصدا دار
 «خديجة» بعد أن طاف بالبيت العتيق...
 وكانت «خديجة الطاهرة» هناك في دارها، ترقب الطريق من عُلْيَةٍ
 لها، في لهفة مشوبة بشيء من القلق، وإلى جانبها غلامها «ميسرة» يملأ
 سمعها بحديث مثير عن رحلته مع «محمد»^(١).

وحين ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الفريدة وملاحه النبيلة،
 عَجِلَتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة، مهنئة بسلامة العودة، في صوت
 يفيض عذوبة ورقة وحنانا.
 ورفع إليها وجهه شاكرا، وقد غَضَّ من بصره، ومضى يقص عليها

(١) انظره في (السيرة ٢٠٠/١)، وطبقات ابن سعد ١٣٠/١، ١٥٦، وتاريخ الطبري ١٩٦/٣، وعيون الأثر ٤٨/١، والإصابة: نساء، السيدة خديجة (رضى الله عنها).

أنباء رحلته وريح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام..
 وأنصتت إليه معجبة، حتى إذا ودعها ومضى، ظلت واقفة حيث هي،
 تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق.
 واتجه هو إلى دار عمه « أبي طالب » وهو يحس شيئا من الرضا
 والارتياح، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما، لم يمسه أذى من يهود....

* * *

زواج سعيد

وسارت الحياة في «مكة» على وتيرتها أياما، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمعون من آثار سفر شاق طويل، محفوف بالأخطار...

وَصُفِّي حسابُ القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجار والأجراء إلى حين، اللهم إلا ما كان بين السيدة «خديجة» الطاهرة و«محمد» الصادق الأمين...

لقد بلغت «خديجة» الدنيا وعرفت الرجال، وتزوجت مرتين، باثنين من سادات العرب وأشرفهم: عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبي هالة هند بن زرة التميمي^(١)، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان، فما رأت فيمن عرفت، ذلك النمط الفريد من الرجال. واستغرقت في تفكيرها، تستعيد صوته الفريد المميز، وهو يحدثها عن رحلته، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال.

(١) هذه رواية (السيرة) ١٩٣/٤، وتاريخ الطبري ١٧٥/٣، والمحبر ١٧٩، والسمط الثمين ١٣، وعيون الأثر ١٥/١).

قابل على رواية الاستيعاب، وانظر «عتيق بن عائذ، وأبا هالة» في (جمهرة أنساب العرب لابن حزم): ١٣٣، ١٩٩ ط أولى ذخائر.

وفجأة، ألقت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى، فهزها شعور مباغت، خفق له قلبها:

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد؟..

وانتفضت لاتدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة، بعد أن نفضت يديها من الرجال، أو خرجت - فى حساب بيئتها - من حياة الرجال؟

كيف تلقى به قومها وقد ردت عن بابها الخطاب من سادة قريش وسراة مكة؟^(١).

لقد فكرت فى قومها، دون أن تعرف رأى «محمد» فيها: أترأه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات؟

وانتابها ما يشبه الخجل، فما هى فى كهولتها بالقياس إلى «محمد» فى شبابه غير خالة أو أم، ولو عاشت «آمنة بنت وهب» لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين!... وهى بعد ليست خلية من هموم الأمومة، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومى ابنة أدركت سن الزواج، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمى، ولدها «هندا» غلاما لم يشب عن الطوق^(٢).

فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما؟

(١) السيرة: ٢٠١/١، والسمط: ١٣.

(٢) انظر: أم محمد بنت عتيق، فى (جمهرة الأنساب ١٣٣) وهند بن أبى هالة، ربيب النبى ﷺ فى (الاستيعاب، والجمهرة: ١٩٩).

وفي غمرة حيرتها واضطرابها، زارتها صديقتها «نفيسة بنت منية» فلم يغب عنها الذى تجد صاحبته، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوى...

وهوئنت «نفيسة» الأمر عليها، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا، وهى بعد ذات غنى وجمال، كل قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه^(١).

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا...

جاءت^(٢) «محمدا» فسألته فيم عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان؟.. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنس وتزيل وحشته؟ فأمسك الشاب دمة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره، وتكلف الابتسام ليرد على محدثه:

- ما بيدى ما أتزوج به...

قالت على الفور:

- فإن دُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تحيب؟

(١) السيرة: ٢٠١/١، طبقات ابن سعد: ١٣١/١.

(٢) من طبقات ابن سعد، عن الواقدي (١٣١/١) والإصابة، فى ترجمتى خديجة ونفيسة، رضى الله عنها.

والذى فى (السيرة) أن السيدة خديجة عرضت عليه الزواج - دون وساطة - وانظر تاريخ الطبرى (١٩٧/٢) والروايتان فى (عيون الأثر ٤٩/١).

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى :

تلك «خديجة» ورب الكعبة، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة؟..

ألا لو دعتَه لأجاب، ولكن هل تدعوه؟

وانصرفت «نفيسة» وتركته مشغول البال، يرنو في رقة إلى طيفٍ من خديجة، وقد تراءت له في وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير، تشع لطفاً وبهاء وحنوا...

وأشفق أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه، وانطلق يسعى نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة:

جنت خاطبا يا محمد؟

أجاب غير كاذب: كلا.

فتأملت برهة ثم هزت رأسها وهي تقول:

- ولم؟.. فوالله ما في قريش امرأة، وإن كانت خديجة، لا تراك كفثا لها^(١).

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى، حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع إليها ملبيا وفي صحبته عماه «أبو طالب وحمة، ابنا عبد المطلب بن هاشم».

(١) الروض الأنف (٢١٤/١) وعبون الأثر (٥٠/١) مع ترجمة نفيسة بنت منية، رضى الله عنها، في نساء الاستيعاب، ونساء الإصابة.

وهناك في بيتها ألفوا قومها ينتظرون، وكل شيء مهياً لزواج عاجل... وتكلم «أبو طالب»:

«أما بعد: فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش، إلا رجع به شرفاً ونبلًا وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قليلاً، فإنما المال ظل زائل وعارية مبرجة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك...».

فأثنى عليه عمها «عمر بن أسد بن عبد العزى بن قصي» وأنكحها منه، على صداق قدره عشرون بكرة^(١).

ولما انتهى العقد، نُحِرَت الذبائح ودقت الدفوف، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم «حليمة» قد جاءت من بادية بني سعد، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، ثم تعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم، هبةً من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت «محمداً» زوجها الحبيب...

وتندت عينا «محمد» وهو يفتقد أمه «آمنة» فإذا يد لطيفة رقيقة، تأسو المرح القديم في حنان غامر، وإذا به يجد في «خديجة» عوضاً جميلاً عما قاساه من طويل حرمان...



ولم يعن «مكة» من أمر الزوجين السعيدين، سوى أن زواجا ربط بين «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي» و «خديجة

(١) في رواية لابن إسحاق عن الزهري، أن أباه هو الذي زوجها. والتفصيل في (حميون

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي^(١) القرشية الأسدية الطاهرة.

ولكن «التاريخ» تلبث بعد بضع عشرة سنة يسترجع يوم العرس المشهود، ويسجله بين أيامه الخالدات على مر الزمان.

وقد انصرف إلى حين، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها «مكة» ويطرفان على مهل، رحيق ودّ صاف عميق، سيظل حديث التاريخ.

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاما، ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتم الله عليهما نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة^(٢).

وأرخصى الزمن لهما في حياتهما تلك الرخية الهادئة أعرا ما ذات عدد، ارتوى «محمد» خلالها من نبع الحنان، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم، ومتزودا لغد مقبل، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام.

وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين، فكان للزوجين في 'وثامهما وتصبرهما، ما أعانها على تجرع الكأس التي تدور

(١) وأم خديجة: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة. راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤). وتاريخ الطبري (١٧٥/٣) - ونسب قريش: ٢٣٠ والمحرر ١٢-١٨.

(٢) انظر السيرة: ٢٠٢/١، وطبقات ابن سعد: ١٣٣/١، وتاريخ الطبري ١٧٥/٣ والمحرر ٧٩، والاستيعاب ١٨١٧/٤، ونسب قريش ٢١.

على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد، وما كان ولداها إلا وديعة، ولا بد يوما أن تسترد الودائع^(١).

* * *

وكان للبيت المحمدي، مع ذلك، أفراحه: زُفَّتْ كُبرى بناته «زينب» إلى ابن خالتها هالة «أبي العاص بن الربيع» القرشي، وتزوجت أختها «رقية، وأم كلثوم» من عُتْبة وعُتَيْبة، ابني العم عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم».

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد ﷺ وأمومة خديجة رضى الله عنها، لأن موضع هذا الحديث يأتي في كتابنا عن «بنات النبي» ﷺ. وذكر الطبري أن هند بن أبي هالة، كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد - ﷺ - وفي ترجمة هند بطبقات الصحابة، والحفاظ، وكتب الأنساب، أنه ربيب رسول الله ﷺ.

مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير، لا في حياة هذه الأسرة الواحدة فحسب، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الإنسانية جمعاء. لقد تلقى «محمد» رسالة الوحي، في ليلة القدر، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا... وكانت الرسالة إيذانا بحياة جديدة، شاقة كادحة، وبدء لعهد ملؤه الاضطهاد والعذاب، والجهاد، ثم النصر.

وفي الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهابات عن نبي جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوأنها^(١).

و«مكة» على الخصوص، كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الإرهابات والبُشريات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول «البيت العتيق»: مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد... غير بعيد من دار المولد وما حف بها من ذكرى قصة

(١) انظر هذه الرويات بالتفصيل في الجزء الأول من سيرة ابن هشام، ط الحلبي ومن طبقات ابن سعد، والمشفأ للقاضي عياض، وفي الجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويري، ط دارالكتب - وفي الجزء الأول من عيون الأثر ووفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى للمسمودي. ط السعادة بمصر.

الفداء، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة، والرحلة إلى الشام. لكن أحداً لم يكن يدرى يقيناً كيف ومتى يكون المبعث المنتظر، ومن هنا كان لنزول الوحي على المصطفى ﷺ، وقع المفاجأة العنيفة التي جاوزت أبعاد التصور. كما كان منذ استقرت به الحياة في رعاية الزوج الرؤوم، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، قد أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل، وميل إلى التفكير المستغرق. وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا. ووجدت في ساعات فراغه - أيام رعيه للغنم - مجالا رحبا، ثم صرفه عنها كدح العيش، لتعود فتظهر من جديد، قوية أصيلة، كأنما هى فطرة فيه.

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة، تلك التى صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص ^(١)، ووصلت ما بين أبيه «عبدالله» و«إسماعيل» جد العرب، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها. فأحيت بحادث فداء «عبدالله» من الذبح، ذكرى متناهية فى القدم، لمشهد الذبيح الأول: ابن إبراهيم.

وانبلج له نور الحق، فرفض هذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله، صماء عمياء، لا تملك لنفسها نفعا ولا تترد عن نفسها ضرا. وأنكر أن تخف أحلام قومه، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا. وأرهف التأمل حسه، فإذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار،

(١) السيرة: ١٦٣/١ - واقرأ الفصل الخاص بمكة فى كتابنا «أم النبى» ﷺ.

ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوة عظمى غيبية، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون...

وما شارف الأربعين، حتى كان قد ألف الخلوة في غار «حراء» واستطاب رياضته الروحية التي يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم، وما كانت «خديجة» في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحيانا، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت، فإذا انطلق إلى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه^(١).

هكذا بدا كأن كل شيء مهياً لاستقبال الرسالة المرتقبة، لكنها - رغم هذا التهيؤ - زلزلت حين جاءت، أرجاء ذلك العالم الذي طالما أرهص بنبوة وشيكة، وهزت كيان ذلك النبي المصطفى «محمد بن عبدالله» ﷺ الذي ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة، ولا ارتاب قط في أن حياة قومه لن تمضى هكذا على سفاهة وضلال...

فما نزل عليه الوحي في ليلة القدر وهو في غار «حراء» حتى انطلق يلتمس بيته في غيش الفجر خائفا شاحبا «يرجف فؤاده» حتى بلغ حجرة زوجه وذهب عنه الروح، فحدثها في صوت مرتجف عن كل

ما كان ونفض لديها مخاوفه، فأخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسي».

أترأه يهذى حالماً؟... أم به جنة؟...

وضمته إلى صدرها، وقد أثار مرآه أعماق عواطف الأمومة في قلبها، وقالت في ثقة ويقين:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً... إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(١).

وزايله روعه، فما هو بالكاهن ولا به جنة، وهذا صوت «خديجة» العذب الواصل، ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده، فيبث فيه الثقة، والأمن والهدوء.

وأحس الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلى فراشه، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي، ثم تهدده بصوتها الأليف المريح.

واستراحت عينها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادئ المطمئن، ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر، حتى إذا بلغت الباب اندفعت إلى الطريق الخالي، تحت خطاها نحو ابن عمها «ورقة بن نوفل» ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح،

(١) متفق عليه من (حديث بدء الوحي) ومعه السيرة ٢٥٣/١ وشرحها في الروض الأنف ٢٧٠/١ وابن سعد، بإسناده من عدة طرق (١٩٤/١) وتاريخ الطبري: ٢٠٥/٢ - ٢٠٧، والسمط الثمين ص ١٠، وعيون الأثر ٨٣/١، والإصابة ٢٠٠/٨... بألفاظ متقاربة.

والكون يبدأ تفتحهُ للضوء والحياة.

وجاءت «ورقة» فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها، لكنه ما كاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن، فانتفض يقول في حماسه:

«قدوس... قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولى له فليثبت»^(١).

ولم تنتظر مزيدا من قوله، ولم تستعد كلمة واحده منه، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل له بالبشري، فإذا به لا يزال نائما كما تركته. وعز عليها أن توقظه، فجلست بالقرب منه منتظرة، تكاد نفسها تذوب من لطفة عليه وحب وحنان.

في حديث السيدة عائشة، رضى الله عنها، عن بدء الوحى، قالت: فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرا تنصر في الجاهلية.. يكتب الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك... فأخبره ﷺ بخر ما رأى، وسمع، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل على موسى، عليه السلام، يا ليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك

(١) السيرة ٢٥٤/١ - وتاريخ الطبرى: ٢٠٦/٢ والحديث مخرج فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها.

أنصرك نصرًا مؤزرًا»^(١).

وطابت نفسه، ﷺ، بما سمع، فانصرف إلى بيته مطمئنًا مع زوجه أم المؤمنين الأولى، لبدأ جهاده من أجل رسالته، وليلقى في سبيلها أشق ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين.

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه، تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا، فلما قضى على بنى هاشم، وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبي طالب، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوف الكعبة^(٢)، ولم تتردد «خديجة» رضى الله عنها في الخروج مع زوجها ﷺ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن، وناءت بأثقال الشيخوخة، والثكل، والاضطهاد.

وأقامت هنالك في شعب أبي طالب ثلاث سنين^(٣)، صابرة مع زوجها النبي ﷺ، ومن معه من صحبه وقومه، على عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية العاتية.

(١) متفق عليه، وانظر السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى: ٢٠٦/٢، ٢٠٧.

(٢) السيرة: ٣٧٥/١ وتاريخ الطبرى ٢٢٨/٢.

(٣) السيرة، والمحرر لابن حبيب (١١) وفي رواية لابن سعد أنهم أقاموا سنتين، ورواية

أخرى بلفظ «مكثوا سنين» - الطبقات ٢١٠/١.

عَامُ الْحُزْنِ

حتى تهاوى الحصار أمام ذلك الإيمان الصادق والمجاهدة الباسلة. وأن للنبي ﷺ أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي، مع زوجه المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة، ما أبقي لها الزمن من طاقة، في عامها الخامس والستين.

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار، مات العم «أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وقد كان لابن أخيه - ﷺ - أباً صديقاً وكافلاً وحامياً، ومانعاً له من طواغيت قريش، قومه.

ولم تشهد رضى الله عنها أمته. كانت في فراشها تودع الدنيا، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبيها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا. ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام، بين يدي الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته، والنبي الذي صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكناً وأنساً وملاذاً، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. ودفنها، ﷺ، بالحجون.

كانت وفاتها، رضى الله عنها، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح^(١).

وتلفت محمد ﷺ حوله، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء، وإذا «مكة» تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان..

قال «ابن إسحاق»: «فتتابع على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام»^(٢).

وأسند الواقدي عن عبدالله بن ثعلبة، بن صُعَيْر، رضى الله عنه، قال: «لما توفى أبوطالب وخديجة بنت خويلد، وكان بينها شهر وخمسة أيام، اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وأقلَّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به...»^(٣).

وبلغت متاعبه، ﷺ، أقسى مداها في عام موت «خديجة» الذى سمي «عام الحزن» وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء. وكذبهم أمانهم فظنوا أن الظفر به جد قريب، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر...

ذلك أن «خديجة» لم تمض إلا وأمين الوحي يرعى النبى ﷺ غاديا رائحا، يزود عنه اليأس والإعياء، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتقدونه بالمهج والأرواح، ويرون الاستشهاد في

(١) ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١/١٣٠)، والإصابة ٦٢/٨، والمحرر لابن حبيب ١١.

(٢) السيرة: ٥٧/٢ - تاريخ الطبرى: ٢/٢٢٩، عيون الأثر: ١/١٣٠.

(٣) طبقات ابن سعد: (ذكر سبب خروجه ﷺ إلى الطائف) ١/٢١١.

سبيل دعوته مجدا وانتصارا...

لم تمت «خديجة» إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت «مكة» إلى أطراف الحجاز، ثم إلى ما وراءها من بلاد العرب، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار إلى «الحبشة» مهاجرين يدينهم، متخلين عن ديارهم وأهلهم، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر، مالتين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن شرف الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد.

لم تمت «خديجة» رضى الله عنها إلا وفي الموسم بمكة، رجال من «يثرب» لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئون المدينة كلها لنصرته، وأقصى أمانهم أن يؤذن لهم في الحرب جهاداً في سبيل الله، ليظفروا بإحدى الحسينين، النصر على أعداء الله، أو الاستشهاد في سبيله...



ملء الحياة

ولكن، هل ماتت «خديجة» حقاً؟

إنها لماتت في حياة زوجها النبي عليه الصلاة والسلام، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه، وما يسرى إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات...

وسوف تدخل بعدها في حياته ﷺ، نساء ذوات عدد، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه، سيظل ماعاش خالصة لهذه الزوج الأولى، والحبيبة الرءوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان، لم تتركها فيه أخرى، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة سواها.

سوف تغد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات، فيهن ذوات الصبا والجمال، والحسب والجاه، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح «خديجة» عن مكانها هناك، ولن تفلح في إبعاد طيفها الذي أقام يحوم حول الحبيب ويستأثر بمحبته.

وستشهد «المدينة» بعد أعوام عندما انتصر في «بدر» يتلقى فداء الأسرى من قريش، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» في فداء زوجها الأسير «أبي العاص بن الربيع» حتى يرق قلب البطل الرسول من شجو وشجن، ويسأل أتباعه الظافرين، في أن يردوا على «زينب» قلادتها ويفكوا أسيرها^(١).

(١) السيرة ٢٠٧/٢ - ولحديث القلادة فصل خاص في كتاب «بنات النبي» ﷺ.

وسيشهد بيت النبي ﷺ «عائشة بنت أبي بكر» في عزة صباها ونضرة شبابها وحب النبي ﷺ لها، تجمع بها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب «محمد» ﷺ واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه.

في (الصحيحين) من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال: «اللهم هالة!» فغرت فقلت: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدين، هلكك في الدهر أبدلك الله خيراً منها؟»^(١) زادت في رواية الإمام أحمد بالمسند، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة من طريق أبي بشر الدولابي: فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا:

«والله ما أبدلني الله خيرا منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء» زاد الطبراني في روايته، قالت: «قلت: يارسول الله اعف عني، ولا تسمعني اذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه».

وكانت قبل ذلك، لاتكف عن الكلام فيها! في (الصحيحين) من حديثها رضي الله عنها. قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها. ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد...»^(١).

(١) متفق عليه، من فضائلها رضي الله عنها.

وفي رواية بصحيح مسلم، أنه ﷺ قال: «إني قد رزقتُ حبَّها»^(١).
وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

«ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت»^(٢).



وحتى يوم الفتح - وقد مضى على وفاة خديجة رضى الله عنها أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث - رُئى رسول الله ﷺ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى، ليشرف منه على فتح «مكة» وليقيم فيه قبة ضربت له هناك^(٣)، تؤنسه روح «خديجة» ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام، ملتفتا بين أونة وأخرى إلى بيتها الحبيب، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الكفاح المضنى الطويل...

وسوف تدخل فى الإسلام من بعد «خديجة» ملايين النساء، لكنها ستظل منفردة دونهن بقلب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وسيذكر لها المؤرخون - المسلمون وغير المسلمين - ذلك الدور، فيقول «بودلى»:

«إن ثققتها فى الرجل الذى تزوجته - لأنها أحبته - كانت تضىء جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم»^(٤).

(١-٢) صحيح مسلم: فضائلها رضى الله عنها، ح (٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨.

(٣) تاريخ الطبرى - حوادث السنة الثامنة للهجرة «ج-٣».

(٤) بودلى: الرسول، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار.

ويؤرخ «مرجليوث» حياة محمد، ﷺ، باليوم الذى لقى فيه خديجة «ومدت يدها إليه تقديرا». كما يؤرخ حادث هجرته إلى «يثرب» باليوم الذى خلت فيه «مكة» من «خديجة».

ويطيل «درمنجم»^(١) الحديث عن موقف «خديجة» حين جاءها زوجها من غار حراء «خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية، غريب النظرات.. فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذى يحتفى به من كل عدوان فى الدنيا».

وكتب عن وفاتها:

«... فقد محمد ب وفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته، تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة فى قلبه... تلك التى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات».

ودرمنجم هنا، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين، فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة، حين تحدثوا عن زواجه بالأمثلة الموسرة: فمرجليوث يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا «بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضى فيكتب، بكلمات تقطر حقدا وزورا:

«إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من

(١) حياة محمد لدرمنجم - ص ٨٥ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعير.

عمه أبى طالب حين خطب إليه ابنته أم هانىء، فرده لفقره وزوجها لذى مال، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانتها، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره».

وليس هذا بمستغرب من مثله، فكذلك يَلُوون الأخبار فى تفسيرهم لتاريخ الإسلام. وكلامه هنا مردود بما فى مصادرنا الموثقة من حديث «عبد الله بن عباس» ابن عم أم هانىء، رضى الله عنها. ذكر خطبته، ﷺ أم هانىء إلى أبيها، عمه أبى طالب، وقد سبقه إلى خطبتها «هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومى»، وهو كفء كريم. فقال أبو طالب: يا بن أخى، إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم «ثم فرق الإسلام بين أم هانىء وهبيرة، فخطبها ﷺ فقالت: والله إني كنت أحبك فى الجاهلية فكيف فى الإسلام؟ ولكنى امرأة مصيبة - أى ذات صبية - فأكره أن يؤذوك»^(١).

وفيهما قال عليه الصلاة والسلام: «نساء قريش خير نساء ركبى الإبل: أحناء على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده»^(٢).

وفى رواية من طريق الشعبى أن أم هانىء رضى الله عنها قالت: يا رسول الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَمْعَى وَبَصْرَى. وَحَقُّ الزَّوْجِ عَظِيمٌ، فَأَخْشَى أَنْ أَقْبِلْتُ عَلَى زَوْجِي أَنْ أَضِيعَ بَعْضَ شَأْنِي وَوَلَدِي، وَإِنْ أَقْبِلْتُ عَلَى وَلَدِي أَنْ أَضِيعَ حَقَّ الزَّوْجِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ خَيْرَ نِسَاءٍ

ركبن الإبل نساء قريش، أحناء على ولد في صغره، وأرعاه على بعل في ذات يده»^(١).

وفسر «موير» في كتابه (حياة محمد وتاريخ الإسلام) وفاء محمد -ﷺ- لخديجة بتهيبه لمركزها المالى والاجتماعى، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق!

وكان على «موير» أن يفسر لنا: فيم إذن كان وفاء الرسول، عليه الصلاة والسلام، لخديجة بعد موتها؟.. وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق، وهو يخصم «عائشة» فيها بعد وفاتها بسنين، وبأبى عليها أن تمس ذكرها؟!!

لقد كانت «خديجة» ملء حياته ﷺ حية وميتة، وما جاوزت «عائشة» الحق حين قالت: «كأن لم يكن' في الدنيا امرأة سواها». وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟!

هل كان لأنتى غيرها، أن تهيب له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها - في إثثار نادر - ما أعده لتلقى رسالة الوحي؟! هل كان لزوج عداها، أن تستقبل عودته التاريخية من غار «حراء»، بمثل ما استقبلته هى به من حنان فياض وإيمان راسخ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبدا؟! هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك

(١) طبقات ابن سعد: ١٥١/٨ وانظر في (نسب قريش) أبناء هبيرة المخزومي من أم هانيء: ٣٤٤ ط أولى، ذخائر.

أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أشد الأذى والاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلا... بل هي وحدها التي مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وأن كانت أول الناس إسلاماً، كما مَنَّ بها على رسوله عليه الصلاة والسلام، ملاذاً وسكناً ووزيراً.

قال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها رضى الله عنها: إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس، حتى مات رضى الله عنها»^(١).

وتركت الراحلة من بعدها، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ، وملء التاريخ الإسلامى. وقد أفردت لهن كتابى عن «بنات النبى» عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل ما أجملت هنا عن أمومة السيدة خديجة، أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها وعنهن^(٢).

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين، بأن حفظ في نسل الزهراء بنت الطاهرة، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام، قَبَسًا من سَنَا نوره ونفحة من عطر شذاه. فهى أم آل بيت النبى، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.



(١) فى السيرة: ٢٥٧/١ - وانظر السمت الثمين: ٢٣.

(٢) وانظر فضائلها رضى الله عنها فى: المناقب من صحيح البخارى والفضائل من صحيح



(٢)

سَوْدَة بنت زَمْعَة
المُهَاجِرَة أَرْمَلَة المُهَاجِر

«... ووالله ما بي على الأزواج من حرص،
ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة
زوجاً لك»

سودة بنت زمعة رضى الله عنها
(الإصابة)

وحشة

الأيام تَمْضِي ثَقِيلَات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد، والليالي كوالح مسهدات، مشحونة بالذكريات، ومحمد ﷺ - في وحدته بعد خديجة: أم العيال وربة البيت ووزيره في الإسلام والشريكة في الجهاد - يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقي من قومه، ليسامر طيف التي ملأت دنياه. والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة، ويودون لو يتزوج، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد «أم المؤمنين» الراحلة.

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه في موضوع الزواج، حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية»^(١) هي التي سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة، تقول: «يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتْكَ خَلَّةٌ لفقد خديجة!»

فأجاب ﷺ: «أجل، كانت أم العيال وربة البيت».

فتشاغلت «خولة» بالنظر إلى بعيد، ثم أقبلت على الرسول ﷺ فاقترحت عليه أن يتزوج! وفي رواية لابن سعد أنها قالت: أفلا أخطب عليك؟^(٢)

(١) الطبقات: ٥٧/٨، تاريخ الطبري: ١٧٥/٣ والسمط الثمين: ١٠٣، والإصابة ١١٧/٨.
ترجمة خولة بنت حكيم السلمية، ذات هجرتين، مع زوجها عثمان بن مظعون الجمحي، رضى الله عنها.

١٠. وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا، وقلبه عامر بطيف الراحلة، يتذكر «نفيسة بنت منية» حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة، تحدثه في الزواج وتعرض عليه «خديجة بنت خويلد».

لكن، من... بعد خديجة؟

ذكرت له «خولة» على الفور، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب: «عائشة... بنت أحب الناس إليك»^(١)

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه: أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه عليّ، ومولاه زيد، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى، بأذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق.

وذكر ﷺ مع «أبي بكر» ابنته عائشة، تلك الصبية اللطيفة الحلوة، التي طالما آنسته -بمرحها ولطفها، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة...

ولم يستطع أن يقول لخولة: لا...

ولو حاول أن يقولها، لما طاوعه لسانه!

أيرفض بنت أبي بكر؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصه، ومكانة لأبي بكر عنده، صلى الله عليه وسلم، لم يظفر بها سواه، وأنس إلى تلك الصغيرة العزيزة، الذكية الملامح، اللطيفة المحيا..

- لكنها ما تزال صغيرة يا خولة...

(١) تاريخ الطبري: ١٧٥/٣.

وكان رد «خولة» حاضرا:

- تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج...

لكن، من للبيت يرعى شئونه، ومن لبنات الرسول ﷺ يخدمهن؟

وهل جاءت «خولة» لتعرض زواجا آجلا، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث؟... بل جاءت وفي خاطرها اثنتان، إحداها بكر وهي «عائشة بنت أبي بكر...» والأخرى ثيب، هي «سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس بن عبد ود العامرية»^(١) وأما «الشموس بنت قيس بن زيد ابن عمرو» من بني عدى بن النجار^(٢).

وأذن لها ﷺ في خطبتها، فمرت أولا ببيت «أبي بكر» ثم جاءت بيت «زمعة» فدخلت على ابنته «سودة» تقول:

- ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟

فسألت «سودة» وهي لا تدري مرادها: وماذا يا خولة؟
قالت: أرسلني رسول الله أخطبك عليه!

وجاهدت «سودة» لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة، ثم قالت في صوت مرتجف: وددت!... ادخلي على أبي فاذكرى له ذلك.

فدخلت «خولة» عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحبح، فحيته بتحية الجاهلية، ثم قالت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة.

(١) من بني عامر بن لؤى - انظر نسب قريش «٤٢١» وجمهرة الأنساب «١٥٧» ذخائر.

(٢) السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب: ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨، والمحرر ٧٩ أو: الشموس

بنت قيس بن عمرو بن زيد (نسب قريش «٤٢٢» وجمهرة أنساب العرب «١٥٨» وعيون الأثر

٣٠٠/٢).

فصاح الشيخ: كفء كريم، فهاذا تقول صاحبتة؟
أجابته خولة: تحب ذاك.

فسألها أن تدعوها إليه، فلما جاءت تلقاها قائلاً:
- أى سودة، زعمت هذه أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أرسل
يخطبك، وهو كفء كريم، أفتحيين أن أزوجه؟
قالت: نعم^(١).

وهنا أشار «زعمه بن قيس» إلى خولة أن تدعو إليه «محمدًا» فقامت
تدعوه للزواج.

وبنى ﷺ بسودة، بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين^(٢).



وفي رواية للواقدي عن مخزومة بن بكير بن عبد الله الأشج، عن أبيه
قال: قدم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة ومعه امرأته سودة
بنت زعمه، فتوفي عنها بمكة، فلما حَلَّتْ أرسل إليها رسول الله ﷺ
فخطبها، فقالت: أمرى إليك يارسول الله. فقال ﷺ: «مُرِى رجلاً من
قومك يزوجه» فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود
العامري - ابن عمها، وأخو السكران - فزوجها فكانت أول امرأة
تزوجها ﷺ بعد خديجة. وفي رواية الواقدي عن ابن أخى الزهري عن
أبيه أنه تزوجه في شهر رمضان سنة عشر من النبوة^(٣).

(١) تاريخ الطبري: ١٧٦/٣، والنقل منه، والسمط الثمين ١٠٢.

(٢-٣) (طبقات ابن سعد: ٥٧/٨ - ٥٢).

هجرة وترمل

وشاع في «مكة» أن محمدا ﷺ فد خطب «سودة بنت زمعة» فكاد ناس لا يصدقون سمعهم، فما في مثل «سودة» مأرب، وتساءلوا في ارتياب: أرملة مُسنّة، غير ذات جمال، تخلف «خديجة بنت خويلد» التي كانت يوم خطبها الشاب الهاشمي، سيدة نساء قريش، ومطمح أنظار السادة من قريش؟.

كلا، لن تخلف «سودة» أو سواها «خديجة» وإنما تجيء إلى بيته ﷺ جبرا لحاظرها، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها: «السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود القرشي العامري» الذي هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها وترك أرملة من بعده، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترميل.

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثانية من بني عامر، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر ثم يركبون أهوال البحر، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك.

من هؤلاء النفر الثانية، كان: «مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامري» أخو سودة، و«السكران بن عمرو بن عبد شمس» زوجها وابن عمها، وأخواه «سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس» وابن أخيه «عبد الله بن سهيل بن عمرو»^(١).

(١) السيرة: ٣٥٢/١، وتاريخ الطبري: ٢٢٢/٢، وعيون الأثر ١١٥/١ - ١١٨ مع: جمهرة الأنساب ١٥٧، والسمط ١٠١.

وصحب ثلاثة من الثانية زوجاتهم، وكلهن عامريات: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبدود، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس.

هكذا خرجت الأسرة المؤمنة، برجالها ونسائها، من دارها ووطنها، راضية بما هو أقسى من الموت، في سبيل الله.

وتمثل عليه الصلاة والسلام «سودة» وهي تودع أرضاً عزيزة حُلَّتْ بها ثمائمها وازدهر فيها صباحها واطمأنت على أرضها كهولتها، ثم تمضي إلى بلد مجهول، وناس لا هي منهم ولا هم منها، لسانهم غير عربي، ودينهم غير الإسلام، وقبل أن تتوب من غربتها، وتبلغ «أم القرى» فاضت روح زوجها «السكران بن عمرو»... لم يمهل الموت ريثما يعود كيما يدفن في ثرى مكة، مرقد من مضوا من الأهل والخلان^(١).

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيماً تأثر، فما كادت «خولة بنت حكيم» تذكرها له، حتى مدَّ يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها، ويهون عليها الذي ذاقته من قسوة الحياة.



(١) في موت السكران بن عمرو روايتان: أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجراً. وقيل: عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة. حكاها ابن عبد البر في ترجمة السكران بالاستيعاب (٦٨٥/٢) وعلى القول الأول موسى بن عقبة، وابن حزم في الجمهرة (١٥٧) والزيبر بن بكار، فيما نقل ابن سعد. وعلى الثاني: ابن إسحاق في السيرة (٧/٢) والواقدي، حكاها ابن سعد أيضاً، وابن حجر في ترجمتها بتهذيب التهذيب، وابن سيد الناس في (عيون الأثر ٣٠٠/٢). وانظر الدرر: ٦١.

وَهَبْتُ لَيْلَتِي لِعَائِشَةَ

وأصبحت «سودة» ذات يوم، فإذا هي زوجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام^(١).

وداخلتها رهبة من جلال زوجها، وقاست نفسها إليه ﷺ، ثم إلى «خديجة» الزوج الأولى، ثم إلى «عائشة» العروس الصبية المنتظرة، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها.

ولم تخدعها نفسها قط، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب «محمد» عليه الصلاة والسلام، حاجزا لا سبيل إلى اقتحامه.

وعرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها، أن «الرسول» ﷺ هو الذى تزوجها، لا «الرجل» الذى لم تجرده النبوة من بشريته. وأيقنت دون ريب، أن حظها من الرسول بر ورحمة، لا حب وتآلف...

لكن ذلك لم يرعها، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله إلى تلك المكانة، وأن جعل منها - أرملة السكران بن عمرو - أما للمؤمنين.

(١) فى خير بالمحبر (٨٠) ورواية لابن سعد عن هشام بن الكلبي بسنده عن ابن عباس رضى الله عنها (٥٦/٨) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه، ففسرها بقرب موته، وزواجها من بعد بالنبي ﷺ. فاشتكى من يومه ذاك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات.

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله، وأن تخدم بناته...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها - وكانت ثقيلة الجسم - وأن يأنس أحياناً إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها...

قالت له مرة:

«صليت خلفك الليلة يا رسول الله، فركعت بي حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم»^(١).

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكاً من قولها...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سداجة، أسند «ابن إسحاق» عن يحيى بن عبد الله بن سعد بن زرارة الأنصاري، قال:

قُدِمَ بأسرى بدر، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء، في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب. قال: تقول سودة: والله إني لعندهم إذ قيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم. فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد، سهيل بن عمرو - أخو السكران بن عمرو - في ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسي، حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا مُتُّم كراماً؟

(١) ابن سعد، من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي (٥٤/٨) والاستيعاب ١٨٦٧/٤، والإصابة ١١٨/٨.

فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت:

«يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟»

قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت! ^(١).

كانت «سودة» تقوم على بيت النبي ﷺ، حتى جاءت «عائشة بنت أبي بكر» فأفسحت لها «سودة» المكان الأول في البيت، وحرصت جهداً على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة، وأن تسهر على راحتها.

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات، فبين حفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب، فما ترددت سودة في إثارة عائشة بإخلاصها ومودتها، وإن لم تظهر ضيقاً هؤلاء الزوجات اللاتي يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكنه ﷺ، أشفق عليها من الحرمان العاطفي، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه، لكن بشريته لم تطاوعه، فكان أقصى ما استطاعه لسودة، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة، وأما عواطفه فأنى له - وهو بشر - أن يقسرها على غير ما تهوى أو يخضعها بإرادته لموازين العدل وضوابط القسمة!

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحاً جميلاً كيما يعفيها من وضع

(١) السيرة: ٢/٢٩٩، وانظر معوذ وعوف ابني عفراء، في شهداء بدر، رضى الله عنهم.

أحس أنه يؤذيها ويحرج قلبها، وإن لم تبد منها بادرة شكوى أو ضيق، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها. وسمعت النبأ ذاهلة، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا، فرفعت وجهها إليه صلى الله عليه وسلم في ضراعة صامته، ومدت يدها مستنجدة، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروح الذي كاد يقضى عليها... وعندئذ آبت إليها سكينتها فهمت في ضراعة:

- أمسكني، والله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك^(١).

ثم أطرقت بحزونة، وقد عز عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته في تسريحها وهي التي تهب حياتها راضية في سبيل مرضاته.

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل، فخرجت من تشيئها بزواج تتنافس في حبه عائشة بنت أبي بكر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت زاد الركب، وحفصة بنت عمر!... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا، بل شعرت أنها إذ تأخذ ليلتها مثلهن، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه!..

(١) ابن حجر، الإصابة: ١١٧/٨، والنقل منه، ونحوه في الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفي رواية أخرى بالمعبر (٨٠) وطبقات ابن سعد ٥٤/٨، والإصابة: أنه صلى الله عليه وسلم بعث إليها بطلاقها فقعدت في طريقه وناشدته أن يرجعها، وجعلت يومها لعائشة رضى الله عنها.

وهمت بأن تجيب في قهر وعلى استحياء:

- سرحنى يا رسول الله!

لكن الكلمات تعثرت في حلقها...

وطال عذابها، وطالت جيرتها، ورسول الله إلى جانبها ينظر إليها صامتا في إشفاق وتأثر.

وفجأة، لاح لها خاطر سكنت له نفسها، فقالت في هدوء:

- أبقنى يا رسول الله، وأهب ليلتى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء^(١).

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمع الكريم: يأقى سودة ليسمعها كلمة الطلاق - وما أبغضها! - فيكون جوابها هذا الإيثار النبيل، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم.

وانجابت ظلمة الليل، فخرج ﷺ إلى المسجد لصلاة الفجر، وقامت «سودة بنت زمعة» فى بيتها تصلى وقلبها عامر براحة الرضا.

أسند الواقدى عن الزهرى عن عروة عن عائشة، قالت: «كانت سودة بنت زمعة قد أسنت، وكان رسول الله ﷺ لا يستكثر منها، وقد علمت مكانى من رسول الله ﷺ وأنه يستكثر منى. فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده، فقالت: يا رسول الله، يومى الذى يصيبنى لعائشة،

(١) الإصابة: ١١٧/٨ والاستيعاب: ١٨٦٧/٤ - وصحيح مسلم - وانظر السمط الثمين ص ١٠٣ - ويقال إنها قد أشرفت يومئذ على المنة!

فقبله النبي ﷺ، وفي ذلك نزلت: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾^(١).

فلندعها في صلاتها راضية مطمئنة، شاكرة لله أن أهمها هذا الحل الموفق، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله، دون أن تستشعر الخزي بالحرص على الأزواج في مثل سنها العالية!

ولقد عاشت في بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه، وفي الخبر أنها عمرت حتى «توفيت في آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه» على الأرجح^(٢) وقد ظلت أم المؤمنين عائشة، تذكر لها صنيعها، وتأثرها بجميل الوفاء، فتقول: «ما من امرأة أحب إليّ من أن أكون في مسلاخها، من سودة بنت زمعة... لما كبرت قالت: يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة». الحديث^(٣).

(١) طبقات ابن سعد: ٥٣/٨. والآية من سورة النساء: ١٢٨.

(٢) الاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر، ٣٠١/٢، ورجح الواقدي أنها توفيت سنة أربع

وخمسين في خلافة معاوية.

(٣) صحيح مسلم: كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) وفي ترجمتها - بطبقات ابن سعد من عدة طرق

بألفاظ متقاربة والاستيعاب والإصابة.

(٣)

عائشة بنت أبي بكر
حبيبة سيد البشر، الصديقة بنت الصديق

«أى بُنَيَّة، خَفَضَ عَلَىكَ الشَّأْنَ فَوَاللَّهِ
لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً حَسَنَاءَ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا،
لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا»
أم رومان رضى الله عنها
من حديث الإفك فى الصحيحين

الصَّهْرُ الكَرِيمُ

«إِنْ مِنْ أَمْنٍ النَّاسَ عَلَيَّ فِي مَالِهِ
وَصَحْبَتِهِ أَبَا بَكْرٍ. وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا
لَا تَخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوَّةُ
الْإِسْلَامِ»

حديث نبوي متفق عليه

عندما ذكرت «خولة بنت حكيم السلمية» للرسول عليه الصلاة والسلام اسم عائشة بنت أبي بكر، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس إليه من صحبة وقربى، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق.

حدثت عائشة عن هذه الخطبة فيما أسند الطبري^(١) من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي عن أبيه، قالت: «فجاءت خولة، فدخلت بيت أبي بكر فوجدت «أم رومان» أم عائشة، فقالت لها: أى أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة! قالت: وددت، انتظري أبا بكر فإنه آت...

(١) تاريخ الطبري ١٧٦/٣، والنقل منه. ونحوه في طبقات ابن سعد (٥٩/٨) وفي الإصابة من حديث عائشة رضی الله عنها، أخرجه ابن أبي عاصم. وانظر معه المحب الطبري في السمع الثمين ص ٣١.

فجاء «أبو بكر» فقالت له: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! أرسلني رسول الله أخطب «عائشة».. قال: وهل تصلح له؟.. إنما هي ابنة أخيه...

فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فقالت له ذلك، فقال: «ارجعي إليه فقولِي: أنت أختي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي»

فأتتُ «أبا بكر» فذكرت له فقال: انتظريني حتى أرجع... قالت «أم رومان: إن المطعم^(١) بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه «جبير» ولا والله ما وعد -أبو بكر- شيئاً قط فأخلف.

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته «أم جبير» -وكانت مشركة- فقالت العجوز: يا ابن أبي قحافة، لعلنا إن زوجنا ابنا ابنتك، أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟

فلم يرد عليها «أبو بكر» بل التفت إلى زوجها «المطعم» فقال: ما تقول هذه؟

فقال: إنها تقول ذاك.

فخرج «أبو بكر» - وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده - وعاد إلى بيته فقال لخولة: ادعي لي رسول الله...

(١) مات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبدمناف القرشي مشركاً، وكان أحد الخمسة الذين قاموا في نقض صحيفة المقاطعة الظالمة. وأما ابنه جبير فقدم على النبي ﷺ، مشركاً، في وفد قريش في أسارى بدر وكان من أكابر قريش، وأعلمهم بالنسب. ثم أسلم بين الحديبية والفتح. توفي في خلافة معاوية رضي الله عنهما. وحديثه عند الستة.

فمضت «خولة» إليه ﷺ فدعته، فجاء بيت صديقه أبى بكر،
فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع على متاع بيت
قيمه خمسون أو نحو من خمسين درهما.

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما، بطبقات ابن سعد
(٥٨/٨) قال: خطب رسول الله ﷺ إلى أبى بكر الصديق عائشة، فقال
أبو بكر: يا رسول الله، قد كنت وعدت بها - أو: ذكرتها - لمطعم بن
عدى بن نوفل بن عبد مناف، لابنه جبير، فدعنى حتى أسلها منهم.
ففعل.

ولا يذكر التاريخ عنها وقتئذ، إلا أنها بنت ست سنين أو سبع،
وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى النوفلى. وأبوها
أبوبكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.
وأُمها أم رومان بنت عمير بن عامر - أو بنت عامر بن عمير - من بنى
الحارث بن غنم بن كنانة^(١).

وقد عُرف قوم عائشة، بنو تيم، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد
الرأى، كما كانوا مضرب المثل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن
معاملتهن...

ثم كان لأبيها إلى جانب هذا الميراث الطيب، ما عرف له من دماثة
فى الخلق وحسن العشرة ولين الجانب. وأجمع مؤرخو الإسلام على
أنه «كان أنسب قريش لقريش، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من

(١) السيرة: ٢٩٣/٤ - ابن سعد: ١٦٩/٣ وتاريخ الطبرى: ١٧٧/٣ والاستيعاب
١٨٨١/٤، وعيون الأثر (٣٠٠/٢). ومات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بمكة
مشركا قبل بدر. وذكره ﷺ بخير فى أسراها من قريش. وأسلم جبير يوم فتح مكة. وأمه
أم جميل بنت سعيد العامرية.

خير وشر. وكان رجلاً تاجراً ذا خلق معروف، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وخبرته وحسن مجالسته»^(١).
فلما بعث محمد ﷺ، أضاف «أبو بكر» إلى هذا كله شرف السبق إلى الإسلام، وكان المناضل عنه بكل ما يملك، الداعى إليه فى شجاعة وحمية. ومن أسلم من الصحابة بفضل أبي بكر واستجابة لدعوته: عثمان بن عفان الأموى، والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى، وسعد بن أبى وقاص الزهرى، وطلحة بن عبيد الله التيمى... وهم من العشرة المبشرين بالجنة، رضى الله عنهم.

قال عليه الصلاة والسلام:
«ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبرة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة، ما عكم - أى ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه».

وقال عليه الصلاة والسلام:
«ما نفعنى مال قط، ما نفعنا مال أبى بكر». قيل فبكى «أبو بكر» وقال: «يا رسول الله، وهل أنا ومالى إلا لك؟».

* * *

وأم عائشة: أم رومان بنت عامر الكنانية،^(٢) من الصحابيات

(١) السيرة: ٢٦٧/١ - وانظر معه مناقب أبى بكر فى صحيح البخارى: ٢/٢٠٠ وفضائله فى الجزء الرابع من صحيح مسلم.

(٢) لا خلاف فى نسبها فى بنى مالك بن كنانة، لكن الخلاف من أبيها إلى كنانة كثير =

الجليلات. كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي فولدت له الطفيل، ثم توفى عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن.

أسلمت بمكة قديما، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وولده، وأهل أبي بكر. وتوفيت بالمدينة في عهد النبي ﷺ، في ذى الحجة، سنة ست. نزل ﷺ في قبرها واستغفر لها وقال: «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك»^(١). وأسند ابن سعد من طريق يزيد بن هارون حديث القاسم بن محمد بن أبي بكر، قال: لما دُليت أم رومان في قبرها قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فليتنظر إلى أم رومان». ونزل ﷺ في قبرها^(٢).

= جدا كما صرح في الاستيعاب (١٩٣٦/٤) وابن سعد في الطبقات (١٦٩/٣) راجع معهما الإصابة، ونسب قريش: ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٧ - ذخائر، والمحبر ٨٠، وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢.

(١) ابن سعد في ترجمتها بطبقاته، وعنه ابن حجر في الإصابة. كما أخرجه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، ولم يختلفوا في وفاتها بعد محنة الإفك، لكنهم اختلفوا في تحديد سنة الوفاة.

راجع ترجمتها في طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكنى) ومعها: تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٦٧/١٢.

(٢) الطبقات الكبرى: ٢٧٧/٨.

مألوفة

كان حسب «عائشة» أن تكون بنت أبى بكر، لينزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته فى أعز مكان.. لكنها كانت إلى جانب هذه البنية، ذات لطف أسر وذكاء لماع وصبا غرض.
ولدت بمكة فى الإسلام، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة.

وفى صحيح البخارى من حديثها فى الهجرة، قالت: «لم أعقل أبوى قط إلا يدينان الدين».

وعرفها ﷺ منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه وتفتح صباها عن ملاحاة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب، إذ كان الذى تولى حضانتها جماعة من بنى مخزوم.

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها: «أريتك فى المنام مرتين، أرى أنك فى سَرَقَةٍ - شقة بيضاء - من حرير ويقول: هذه امرأتك. فأكشف عنها فإذا هى أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه.»^(١)

(١) متفق عليه، من فضائلها رضى الله عنها.

ولم تدهش «مكة» حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا. ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه.. ولو كان بهتاننا وزورا وافتراء.

وماذا عساهم أن يقولوا؟...

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة، لم تبلغ السابعة من عمرها؟ لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها المصطفى ﷺ، على «جبر بن مطعم بن عدى» بحيث لم يستطع «أبو بكر» أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبر.

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين؟

أى عجب فى مثل هذا، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة إلى رجل فى سن أبيها، ولن تكون كذلك أخراهن؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من «هالة» بنت عم «آمنة» فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه، من ترب هالة «آمنة بنت وهب».

وسيتزوج «عمر بن الخطاب» من بنت على بن أبى طالب، وهو فى سن فوق سن أبيها!

ويعرض «عمر» على «أبى بكر» أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة»

وبينها من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة...

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو من ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج، فيهدرون فروق العصر والبيئة، ويطلقون القول فيما وصفوه بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريبة العذراء» ويقيسون بعين الهوى، زواجا عقد في مكة قبل الهجرة، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر، حيث لا تزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة في الجزيرة العربية، بل في ريف مصر وأكثر مناطق الشرق، وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة العربية وعاد يقول:

«ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد... نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه، فلم يقدرُوا أن زواجا مثل ذاك، كان ولا يزال عادة آسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادات لا زالت قائمة في شرق أوربا، وكانت طبيعية في إسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم، في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة...»^(١).

ولقد كانت غبطة آل أبى بكر بالمظاهرة الكريمة، مما صحت به الآثار وتواترت المرويات. ومنها ما أسند الواقدى^(٢) من حديث حبيب المدنى، مولى عروة بن الزبير ابن السيدة أسماء بنت أبى بكر، قال: لما ماتت خديجة حزن عليها النبى ﷺ حزنا شديدا. فبعث الله جبريل فأتاه

(١) بودلى: الرسول - ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار.

(٢) الطبقات الكبرى: ٧٨/٨.

بعائشة في مهد فقال: «يا رسول الله، هذه تذهب حزنك، وإن في هذه خلفا من خديجة، ثم ردها. فكان رسول الله ﷺ يختلف إلى بيت أبي بكر ويقول: «يا أم رومان، استوصي بعائشة واحفظيني فيها» فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها، وكان ﷺ لا يخطئه يوما واحدا أن يأتي إلى بيت أبي بكر منذ أسلم إلى أن هاجر، فيجد عائشة مسترة بباب الدار تبكي بكاء حزينا، فسألها فشكت أمها فدمعت عيناه ودخل على أم رومان فقال: «يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة»؟

الهجرة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحّة من ملاهى
حداثتها، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها، بل تركها
حيث هى فى بيت أبيها، ترح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية
البال...

وكان كل حظه منها أن تسرع إليه كلما مر ببيت «أبى بكر» فتكاد
تنسيه بلطفها وإيتاسها، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب، وتزيل
عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى إلى داره وحيدا غريبا...
وحيدا، وإن كان فى عصمته «سودة بنت زمعة» تتفانى فى خدمته
وتقوم على شئون داره وبناته.

غريبا، وإن يكن مقبيا فى «مكة»: بلد آبائه وأجداده منذ
ما لا يحصى من الدهور والأحقاب.

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه «أبى بكر» كلما اشتدت عليه
وطأة الشعور بالوحدة والغربة، ليلطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه
فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض.

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ، فى عظمته وجلاله ووقاره،
يرتاح إليها ويأنس إلى صحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه إليه،
حيث يشاركها هوها فى سباحة حلوة وألفة حبيبة.

وازدهاها «ألا يخطئ رسول الله ﷺ، أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية»^(١).

وذاث يوم - وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها، وخرج المسلمون عن مكة إلى المدينة مهاجرين، فلم يتخلف مع الرسول عليه الصلاة والسلام، إلا من حبس أو فتن، غير أبي بكر وعلى بن أبي طالب - علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لب، وران على الكون ذلك الصمت المكثف والسكون اللاغب، وكانت «عائشة» في فناء الدار، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة.

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب، فأصغت في لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز ﷺ.

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحة، فلما لمح «أبو بكر» شخص النبي ﷺ قريبا من الدار في تلك الساعة من حر الهاجرة، حتى وثب من مهجعه وهو يقول:

«ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث».

فلما دخل تأخر له «أبو بكر» عن سريره، فجلس عليه الصلاة والسلام، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جليل، فأمسكت «عائشة» أنفاسها، وكذلك فعلت أختها «أسماء»، ووقفنا خاشعتين تترقبان...

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من في الحجرة:

(١) السيرة: ١٢٨/٢ وعيون الأثر ١٨٢/١ من طريق البخارى. في صحيحه، حديث الهجرة، مع فتح البارى: ١٦٦/٧.

«أخرج عني مَنْ عندك!»

قال الصديق: يا رسول الله، إنما هما ابتائى...
ثم أضاف مستفسرا في قلق: وما ذاك فذاك أبى وأمى؟
قال عليه الصلاة والسلام:

«قد أُذِنَ لى فى الخروج والهجرة...»

فهتف الصديق: الصحبة يا رسول الله... الصحبة! ^(١)
وكان كثيرا ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له:
«لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً»

فيطمع فى أن يكونه...

وتذاكر الصحابان - على مسمع من عائشة وأساء - ما كان من
غيط قريش حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير
بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا
داراً وأصابوا ملاذاً، فحذروا خروج رسول الله إليهم، وعرفوا أنه قد
أجمع لحربهم، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب التى
كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون فى أمر
محمد ﷺ.

وكان فيهم عتبة بن ربيعة - أبوهند - وشيبة أخوه، وأبوسفيان بن
حرب، وطعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والنضر بن الحارث بن كلفة،
وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وحكيم بن حزام، وأمّية بن
خلف، وغيرهم من رجال قريش.

(١) السيرة: ١٢٩/٢ والنقل منها. وحديث الهجرة مخرج فى الصحيحين عن السيدة عائشة،

وابن عباس رضى الله عنها.

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبي جهل بن هشام: أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا، فيُعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فيرضوا منهم بالدية^(١).

وأذن لرسول الله في الهجرة، واختار أبا بكر له صاحباً!
وأحست «عائشة» ضيقاً وقلقا من الفراق الوشيك، وتطلعت إلى المصطفى الحبيب ﷺ ثم إلى أبيها، فما راعها إلا أن رآته يبكي من الفرع.

وما شعرت قط - في سنها الغضة - قبل اليوم أن أحدا يبكي من الفرع، حتى رأت أباها رضى الله عنه يفعل يومئذ^(٢).



وبدأ التأهب لرحيل عاجل...

بعث «أبو بكر» رضى الله عنه يدعو إليه «عبد الله بن أريقط» - وكان دليلاً ثقة، خبيراً بمجاهل الطريق - فدفع إليه راحلتين يرعاها لميعادهما الموقوت.

ودعا صلى الله عليه وسلم إليه ابن عمه «على بن أبى طالب» فأسر

(١) ابن هشام، السيرة: ١٢٤/٢، ١٢٦ وابن سعد من طريق الواقدي (٢٢٧/١)، تاريخ الطبري: ٢٤٣/٢، عيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق.
(٢) السيرة: ٢٤٦/٢.

إليه النبا الخطير، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس.

فلما حانت ساعة الرحيل: وقف ﷺ على مرتفع هناك بيت أبي بكر، فرنا إلى «البيت العتيق» وقتا، ثم أشرف على «أم القرى» وقال: «والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»^(١).

ثم استدار فنظر إلى «عائشة» وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا، وقد أذهلها الفراق المفاجئ السريع، فما درت أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام...

وتسلل الصحابان من خوخة في ظهر بيت أبي بكر، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هي كل ما بقى له ولأهله من مال، ثم انطلقا وما يعلم أحد في «مكة» بخروجهما إلا «على بن أبي طالب» وآل أبي بكر...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه في جبل ثور بأسفل مكة، وبقيت «عائشة» في الدار وحيدة قلقة.

أما أخوها «عبد الله» وهو شاب لّيقن، فكان يدلج كل سحر فيصبح مع قريش بمكة، يتسمع ما يقول الناس...

وأما أختها «أسماء» فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار في ستر المساء.

وسمعت «عائشة» من أخيها «عبد الله» أن المشركين قد أحسوا

(١) السيرة: ١٢٩/٢، والنقل منها، وتاريخ الطبري: ٢٤٧/٢.

خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم.

وكادت نفسها تطير شعاعا، لولا أن عصمها من اليأس إيمانها بالله ورسوله، وما كانت تسمع من حديث أخيها إلى مولاها «عامر بن فهيرة» أن يرعى النهار في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح غنم أبي بكر على الغارا!

وكانت مشغلة «عائشة» طول النهار أن تعد الدقائق وهي تمضي في بطاء كأنها أعوام، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد. فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها «أسماء» لرحلتها المسائية، حملتها «عائشة» سلامها ودعواتها للراجلين العزيزين، ثم وقفت تحديق في الطريق مترقبة عودة «أسماء» وقلبها يخفق في لهفة وقلق.

وتعود «أسماء» فتتب إليها عائشة معانقة، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب، واليد التي صافحتها، والأذن التي سمعت صوتها، ثم تجلس إليها لتسمع منها ما رأت من حالها..

وتحدثها «أسماء» عن مشقة الإقامة في الغار، وعما كان من حزن أبي بكر رضى الله عنه حين رأى الرسول ﷺ في ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، فقال:

«إِنْ قُتِلْتُ فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ. وَإِنْ قُتِلَتْ أَنْتَ هَلَكَتِ الْأُمَّةُ..
فَيَذْهَبُ ﷺ عَنْهُ الْخَوْفُ بِقَوْلِهِ:
«لَا تَحْزَنْ إِنْ اللَّهُ مَعَنَا»^(١).

(١) من حديث الهجرة في (الصحيحين). وفي السيرة، والنقل منها. وعيون الأثر ١٨٢/١ مع

(آية التوبة: ٤٠).

وتظل «عائشة» تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة، حتى ينال منها الجهد والسهد، فتستسلم عينها للغمض، وتحوم روحها حول الغار القريب، مأوى أعز من لها في الوجود.

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد ﷺ وصاحبه، ثم حان المساء وتسلفت «أسماء» خفية تحمل الزاد، فلما عادت قصت على «عائشة» كيف أن المطاردين بلغوا الغار، وتلبثوا عنده برهة، بل هموا بالنزول إليه، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار، وحماتان وحشيتان وقعتا عليه!

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منها ويتشاورون فى اقتحام الغار، فقال: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. قال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين، الله ثالثهما؟»^(١).

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة، وقفت «عائشة» فى مرقبها إثر نهار مشحون بالقلق، ترصد الطريق... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت، وهى مرهفة الحواس تحديق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص «أسماء»، وتتسمع بلء وعيها وانتباهها، لعل هواء الليل يحمل إليها حسا من خطوات بعيدة!

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب، حتى أقبلت «أسماء» أخيرا تسرى على عجل، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس.

(١) متفق عليه من حديث أبى بكر، فى بابه من فضائل الصحابة، رضى الله عنهم.

واشتد القلق بـ«عائشة»، فوقفت حيث هي، تحقق في نطاق «أسماء» الذي عادت به من رحلتها ممزقا. قد غاب شق منه!

ورحمتها «أسماء» فجعلت لها نبأ خروجها سالمين من الغار، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها، وأقبلت تحدث «عائشة» عما كان:

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر- والتي اختيرت لبدأ بها التقويم الإسلامى- جاء الدليل «عبد الله بن أريقط البكرى» يسوق الراحلتين اللتين أودعهما إياه أبو بكر منذ أيام، وراحلة له ثالثة، فأناخ عند فتحة الغار، فخرج ﷺ وصاحبه رضى الله عنه، وجاءت «أسماء» بطعامها فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما، فلما همّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها، أعوزها العصام تربط به السفرة إلى الرحل، فحلّت نطاقها فشقته نصفين، علقت السفرة بأحدهما، وانتظت بالشق الآخر، فبذلك سميت ذات النطاقين^(١).

ونظر «أبو بكر» إلى الراحلتين يفحصهما، ثم اختار أفضلهما فقرّبها إلى النبى ﷺ قائلاً: «اركب... فذاك أبى وأمى»...

فركب المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم ركب «أبو بكر» وأردف خلفه مولاة «عامر بن فهيرة»...

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا إلى الجنوب فى طريق غير مطروق، ووقفت «أسماء» تتبّع بعينيها وقلبها حتى أبعد، فرجعت وحدها إلى بيت أبيها، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين.

(١) ابن سعد، من حديث هشام بن عروة عن أبيه (٢٥٠/٨) والإصابة من طريق ابن إسحاق. وانظر تخريج الحديث فى (فتح البارى: ١٧٦/٧).

وغابت «عائشة» عما حولها، ومضت تسرى بروحها في أثر الراحلين،
فما راعها إلا طرقات عنيفة تلح على الباب، فوقفت مكانها لا تملك
حراكا، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل، فإذا نفر من قريش
- فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي - يسألونها في غلظة:
«أين أبوك يا بنت أبي بكر؟»

قالت: «لا أدري والله أين أبي!»

وما كذبت، فقد كان آخر عهدا بأبيها منطلقا من الغار، ساريا في
بجاهل الفلاة، إلى حيث لا تدري أين بلغ به سراه في صحبة النبي ﷺ.
فلم تشعر إلا ويد «أبي جهل» ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية،
طرحت قرطها! ^(١)

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون...

ومضت أيام وليال، لم يكن لمكة فيها من حديث إلا عن تلك المطاردة
الشرسة العنيدة، تعدو فيها قريش وراء مهاجر شبه أعزل، وقد اشتد
خوفها أن ينجو بدعوته إلى حيث يغدو مطمئنا وما لها إليه من سبيل.
ونجا ﷺ، وصاحبه في الغار.

وتضاربت الأنباء في وجهته، حتى جاء خبر من يثرب أن المسلمين
هناك يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة منتظرين، فما يرحون

(١) السيرة ١٣٢/٢، وتاريخ الطبري: ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء في الاستيعاب بسند ابن
عبد البر، وفي الإصابة من طريق مسلم وابن سعد. وابن سيد الناس في عيون الأثر (١/١٨٩)
من طريق الفيلانيات.

مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال...

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل، سمعوا صيحة رجل من يهود: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء.

فخرجوا مسرعين ليروا النبي ﷺ في ظل شجرة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرهم لم يكن رآها قبل ذلك، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما النبي ﷺ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثاني فأظله بردائه، فعرفوه^(١).

وسرى النبأ في أنحاء «يثرب» وتعالى الهتاف من كل مكان، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية في شوق ولهفة إلى حيث تلقى المهاجر العظيم، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم، تشق أجواز الفضاء! وعرفت «عائشة» مكان الحبيب...

وكذلك عرفت قريش، حين لم تعد تجد فيها معرفة، وجاء دورها لتنتظر في خوف وذعر ماذا يأتي بعد به الغد...

انكشفت في قهر، أن أعجزها الظفر بمهاجر فرد، خرج من «مكة» وليس معه غير صاحب واحد، ودليل غير مسلم. ومولى تابع... وأرهدف التاريخ سمعه، يبدأ بهذه الهجرة إلى يثرب كتاباً جديداً في تاريخ الإنسانية، ويبدأ بها ليثرب نفسها، عهداً جديداً مباركا: مدينة النبي عليه الصلاة والسلام.

(١) السيرة: ١٣٧/٢، وانظر نسب «قيلة» أم الأنصار الأوس والخزرج، في جمهرة أنساب العرب (٣١٢-٣٤٧) وفي «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسهمودي ص: ٨: ١٥٦ ط ١٩٥٥.

العروس

بعد أن استقر عليه الصلاة والسلام في دار هجرته، بعث «زيد بن حارثة» إلى مكة ليصحب بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم رضى الله عنهن، ومعه رسالة من «أبي بكر» إلى ابنه عبد الله، يطلب إليه فيها أن يلحق به، مصطحباً زوجته «أم رومان»، وابنتيه «أسماء» وعائشة» وكان مع زيد «أبو رافع» مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه الصلاة والسلام.

وتهاجراً للجمع للسفر، وخرجوا صحبة يريدون دار الهجرة، وما تكاد الدنيا تسع «عائشة» من فرحتها وابتهاجها، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحلة تتوثب، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بغيرها فاستغاثت «أم رومان» مذعورة:

«وابنتاه، واعروساه!»^(١)

وأسرع «عبد الله بن أبي بكر، وطلحة بن عبيد الله، وزيد بن حارثة، وأبورا فاع» فردوا البعير النافر، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء.

* * *

وفي «المدينة» كان المصطفى يهيئ داراً لعائشة.

أقام ﷺ في «قبا» أربعة أيام، أسس خلالها أول مسجد في الإسلام، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقبا، في مربد هناك لكثوم بن هذم

(١) تاريخ الطبري: حوادث الهجرة - والاستيعاب والإصابة في ترجمة أم رومان رضي الله

الأنصاري^(١).

وركب ناقته «القصواء» يوم جمعة، فأدركته صلاتها في «بنى سالم بن عوف» فصلى أول جمعة بالمدينة، ثم استأنف مسيره فكلما مرّ بحى من أحياء يثرب خرج إليه رجاله مرحبين داعين:
«هلم إلينا يا رسول الله، إلى العدد والعدة والمنعة»

فيجيب شاكراً: «خلوا سبيل ناقتي» حتى انتهت إلى باب «أبي أيوب الأنصاري» وفيه نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه...^(٢)

وتنافس المهاجرون والأنصار في البناء، حتى تم بناء المسجد النبوى، ومن حوله تسع حجرات، بعضها من الجريد والطين، وبعضها من حجارة مرضومة، بعضها فوق بعض.

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد.

وفى واحد من هذه البيوت أقامت «سودة بنت زمعة» ترعى الشئون المنزلية، وتسهر على خدمة النبى ﷺ، وبنتيه أم كلثوم، وفاطمة...
أما «رقية» فكانت مع زوجها «عثمان بن عفان» حيث نزل بالمدينة.
وأما «زينب» فكانت «بمكة» مع زوجها «أبي العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة، وكان لا يزال مشركا، لم يفرق بينها الإسلام بعد...

(١) السيرة الهاشمية: ١٣٩/٢ - وتاريخ الطبرى ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسهودى: ٢٥٠/١.

(٢) السيرة ١٣٩/٢، وطبقات ابن سعد: ٤٩٩/١، ووفاء الوفا: ٢٠٦/١.

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته، واستقر المسلمون في دار الهجرة واطمأن بهم المقام، آمنين من اضطهاد عدوهم، تحدث «أبو بكر» بعد الهجرة بأشهر معدودات، إلى محمد عليه الصلاة والسلام في إتمام الزواج الذي عقده بمكة قبل ثلاث سنين.

فلبى المصطفى راضيا، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل صهره الصديق، حيث كان ينزل بأهله، في بني الحزرج.

وتصف «عائشة» يوم عرسها فتقول: «جاء رسول الله ﷺ بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أُمِّي وأنا في أرجوحة بين عذقين، فأنزلتني ثم سوت شعري ومسحت وجهي بشيء من ماء. ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي، ثم أدخلتني ورسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا، فأجلستني في حجره وقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك^(١).

ووثب القوم والنساء فخرجوا، وبني رسول الله في بيتي، ما نُحِرت علىَّ جزور ولا دُبِحت من شاة، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ عليه الصلاة والسلام.

وحمل إليهما كذلك قدح من لبن، شرب المصطفى منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه...».

وكانت عائشة عروسا حلوة، خفيفة الجسم، ذات عينين واسعتين،

(١) السمت الثمين ص ٣٢ - وتاريخ الطبري: ١٧٦/٣ ووفاء الوفا: ١/٢٦٠ مع صحيح مسلم: كتاب النكاح، ح (١٤٤٢).

وشعر جعد، ووجه مشرق، مشرب بحمرة، وقد انتقلت إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد، من اللبن وسعف النخيل، وضع فيه فراش من آدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير. وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر...^(١).

وفي هذا البيت المتواضع بدأت «السيدة عائشة» حياة زوجية حافلة، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد وبعده، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق في حياة الرسول ﷺ والإسلام.

كانت صغيرة السن، أو طفلة - كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها، وقال المستشرق بودلى: «منذ وطئت قدماها بيت محمد، كان الجميع يحسون وجودها. ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه، لكانت عائشة بنت أبى بكر... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد...»^(٢).

وأدق من هذا أن يقال إن «عائشة» قد اكتمل نموها في هذا البيت، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عيني النبى ﷺ من صبية يأتيتها زوجها بصواحبها ليلعبن معها، أو يحملها على عاتقه لتظل على نفر من الحبشة يلعبون بحراهم^(٣) إلى شابة ناضجة مجربة، تسألها امرأة في مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل، فتجيبها: «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى...».

(١) السهوى: وفاة الوفا ٤٥٩/٢ : ٤٦١ وانظر في صحيح مسلم، الحديثين ٢٠٨٢،

(٢) بودلى: الرسول، ص ٩٣، ١٣٠ من الترجمة العربية.

(٣) صحيح البخارى: ١٨٢/٣ ط الشرقية. ومسند أحمد.

وتكره أن تلقى امرأة زوجها في كآبة الحداد، وهي تروى الحديث عن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج».

وتظل، رضى الله عنها، تبارك الشهر الذى خطبت فيه وتزوجته فيه، وتختاره لنساء قومها، تفاؤلا به.

وفى صحيح مسلم حديث عروة بن الزبير عنها، قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبني بى فى شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى؟ قال عروة: وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها فى شوال^(١). رواه ابن سعد، من طريق الواقدي من حديث عروة بن الزبير عنها.

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها، زوجة ثانية للزوج الذى أحبته «عائشة» بكل كيائها، يشغل بالها فى كثير أو قليل، فما غاب عنها قط أن لا مكان لسودة فى قلب الزوج، وإنما الذى كان يشغل عائشة، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به «خديجة» قبلها من زوجها ﷺ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان!

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها، وهى راقدة فى مثاها بالحجون، من ثرى مكة،

(١) كتاب النكاح من صحيح مسلم. ومعه عن الواقدي بسنده، بلفظ مقارب، من حديث عمرة بنت عبد الرحمن، بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية، عن عائشة رضى الله عنها (طبقات ابن سعد: ٦٠/٨).

فما تستطيع «عائشة» أن تشتفى منها بدعابة قاسية، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتى النضير، أو تفاخرها بأنها زُفَّتْ بكراً إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، بكراً لم تعرف قط رجلاً غيره.

ومع المشهور من حبه ﷺ لعائشة، حاولت أن تتجاهل هذه الضرة التي ماتت، فذهبت محاولتها عبثاً. ذلك أن طيف «خديجة» بقى ماثلاً أمام عيني زوجها، واسمها الحبيب على لسانه، وصوتها في مسمعه، وذكرها حية ملء دنياه.

وزاد في قسوة الموقف أن الشهور مضت والسنون، و«عائشة» لاتنجب لزوجها ولداً، على حين ولدت له «تلك العجوز من قريش» - كما كانت تصفها - البنين والبنات^(١).

وكانت عائشة تعرف في زوجها، وفي رجال قومها جميعاً، ذلك الحب القوي للأبناء، والحرص على الإنجاب، ثم ترى من تعلق الزوج - الذي أحبته جهد الحب - ببنات خديجة، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف الزوج ومحبته، وما يأخذها به إيمانها من تجمل بالصبر فيما لاحيلة لها فيه.

وكانت بحيث تجد في بنات محمد - زوجها الحبيب - ما يلطف من لهفتها على الأمومة، لو حاولت أن تتبناهن، لكن يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن، كذلك، بنات ضرتهن «خديجة» حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن، بل تحس أن كل واحدة منهن، هي «خديجة» ذاتها، تثير

(١) في ترجمتها بالإصابة، قال ابن حجر: «فقيل إنها ولدت من النبي ﷺ ولداً فمات طفلاً، ولا ثبت هذا» وفيها: «وذكر أبو سعيد الأعرابي في معجمه بسند ضعيف جداً، أنها أسقطت من النبي ﷺ، سقطاً».

فيها شعورا مُراً بالعقم، وتذكرها في كل آن بما كتب عليها من حرمان.
 والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء إخوتها من تفيض عليه
 عواطف أمومتها المحرومة كي لا يرهقها الكبت، فأنزلت ابن أختها
 أسماء «عبد الله بن الزبير» منزلة الابن، وبه كانت تكنى فيقال: «أم
 عبد الله»^(١).

وحين مات أخوها «عبد الرحمن» ضمت إليها ابنه القاسم وابنته
 الطفلة، فيقول القاسم:
 «فما رأيت والدة قط أبر منها».

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان، بما عرفت لها من
 موضع في قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة، وما حظيت به
 من حبه وتدليله، وإيثاره...^(٢).

* * *

(١) الاستيعاب: ٤/ ١٨٨٣ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ في الكنية، فقال لها: اكنى
 بابنك عبد الله بن الزبير. ومعه (طبقات ابن سعد: ٨/ ٦٣، ٦٦).

(٢) انظر مناقبها في صحيح البخارى، وفضائلها في صحيح مسلم.

الضرائر

وإذ هي سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها، آملة أن تستطيع به - ولو بعد حين - تناسي ضررتها التي ماتت، فوجئت بزواج جديدة تدخل بيت النبي، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة «سودة» وتشاركها في حياتها الزوجية، يوما بيوم وليلة بليلة!

إنها «حفصة» بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله الإسلام به! وروع «عائشة» أن يتزوج «محمد» ﷺ - عليها، وما تزوج قط على خديجة، حتى ماتت في الخامسة والستين!

وآلها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها، وحب الرسول لها، من ذلك الهم البغيض المر، الذي لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت!

وجاءت من بعد «حفصة» زوجات أخريات، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة...

كانت فيهن «زينب بنت جحش» الشابة الجميلة، و«أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب» الحسنة الأبية المترفعة، و«جويرية بنت الحارث» التي تأخذ العين بملاحتها، و«صفية بنت حيي» سليلة اليهود، الناعمة الساحرة، و«أم حبيبة» بنت أبي سفيان زعيم مكة وقائد جيشها...

ثم كانت هناك «مارية» المصرية الجذابة، أم ولده إبراهيم عليه السلام.

وربحانة بنت عمرو، حسناء بنى قريظة، لم يتزوجها ﷺ، لكنها أقامت في ملكه ما عاش.

وكان هذا بحيث يجعل «عائشة» تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام، لكن يخطئ من يزعم أو يتوهم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن «عائشة» استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت في كنيثها بأمر عبد الله، أو في أمومتها للمؤمنين جميعا، ما يطفئ شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب، عز مثله في الأزواج.

ولم تدر «عائشة» أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم، فقد كانت تعرف - كما يعرف سواها - أن النبي ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة، لا لإسراف وهوى...

وكانت تعلم - ويعلم الناس جميعا - أن عائشة هي الزوج الحبيبة المفضلة، أحظاهن عنده ﷺ. فهل تسكن إلى رضا واستسلام؟ كلا، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها في قلب زوجها ﷺ، مهما يكلفها الأمر، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكاها وصباها، أن تلزمهن موعضا بعينه لا يتجاوزنه.

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل «عائشة» أو غيرها من نسائه على التجرد منها.

فلتستجب «عائشة» لفطرتها دون كبت أو قهر، ولتكن لنسائه مشاغلهم النسوية وشواغلهم العاطفية، ولو جمحت بهن الغيرة، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا.

وكانت «عائشة» بينهن أشدهن غيرة عليه، ونضالا في سبيل الاستثثار بحبه.

وعذرها أنها التي تفتح لها قلبه بعد «خديجة»، وأنها وحدها التي تزوجها بكرة، وأنها «عائشة بنت أبي بكر».

وقد نظرت إلى ضرائرها تقيس نفسها إليهن، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف، لتعرف من أين تأخذهن.

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن، ممن لا قبل لهن بمنافستها، مثل «سودة بنت زمعة»، و«زينب بنت خزيمة الهلالية» التي لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات.

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الضرائر مجتمعات، تظاهرن «السيدة فاطمة الزهراء» التي أرادت لها «السيدة عائشة» منذ جاءت بيت محمد ﷺ، أن تكون لها ضرة...

وقررت أن تختار من هؤلاء، أبعدهن عن الخطر في ميدان المنافسة، فتوددت في شجاعة ولباقة إلى «حفصة بنت عمر»^(١) متخذة من تقاربها في الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد.

واستجابت «حفصة» لهذا التودد وقد سرّها أن تؤثرها «حبيبة المصطفى» بالمودة، وأن تعترف بأن بنت عمر، أقرب نساء النبي إلى بنت أبي بكر...

(١) في حديث السيدة عائشة عن حزب النساء، أن حزبا كان فيه حفصة وسودة وصفية، والحزب الآخر فيه أم سلمة ومائت الأزواج رضى الله عنهن، انظر (السمط الثمين ص ٣٩).

واتخذت «عائشة» من «حفصة» موضع سرها منذ سمعت بزواج رسول الله ﷺ من «أم سلمة» فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس...

وهونت «حفصة» من خطر «أم سلمة» فإنها على جمالها كبيرة السن، وإن الجمال ليزبل سريعاً في مثل سنّها، فلتبّق عائشة غيرها لمن تستحق...
وفعلت عائشة...

ادخرت غيرها للشابة الشريفة الحسنة «زينب بنت جحش» وراحت تراقبها وتحصى عليها أن أطال ﷺ مكثه لديها، إذ كانت تسقيه من غسل يجه.

في (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها، قالت إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة: أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير؟ فدخل على إحداها فقالت له ذلك فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآيات.

وفي رواية بالصحيحين كذلك، عن عائشة، أن حفصة هي التي سقته من عكة غسل أهدتها لها امرأة من قومها، فأقسمت عائشة أن تحتال للأمر، فكان تواطؤها مع سودة بنت زمعة وصفية بنت حيي، أيتهن دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: أكلت مغاير؟ ما هذه الرياح التي أجد منك؟ فيقول: «سقتني حفصة شربة غسل» فتقول كل منهن: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُ - أي رَعَتْهُ.

والعرفط شجر يثمر المغافير، مذاقها حلو، ورائحتها كريهة: فكان أن امتنع ﷺ من شرب العسل.

وأحست «سودة» ندما فقالت لصاحبتها: «سبحان الله! والله لقد حرمناه!»

فنظرت إليها عائشة، أن اسكتي!

الحديث، بروايته، متفق عليه، عن السيدة عائشة رضى الله عنها.



حتى جاءت وافدات أخريات شغلن «عائشة» حيناً عن أم سلمة وزينب، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبي إليه بعدها... وإحدى هؤلاء الوافدات من كندة، وثانية من مصر.

أما الأولى فكانت «أساء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية» التي أحست «عائشة» خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها، وقدرت أنها إذا لم تحل بينها وبين زوجها المصطفى فسوف تكلفها من أمرها عسراً.

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج! دعت إليها حفصة، وأخرى ممن يحرصن على إرضائها، فقالت لهما: «قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا».

واتفقن على موقف: أقبلن على العروس مهنئات، يجلونها للزفاف ويوصيها بما تفعل وما تقول استجلاباً لرضا الزوج العظيم ومحبة، فكان مما نصحن لها به أن تستعيز بالله إذا ما دخل عليها!

وفعلت المسكينة!

لم تكذ تراه ﷺ مقبلا عليها، حتى استعازت بالله، وفي حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه!

فصرف رسول الله ﷺ وجهه عنها وقال:
«لقد عُدَّتْ بمعاذ...»

وغادرها من لحظة وأمر أن تُمتنع وتلحق بأهلها^(١).

فبعثت إليه، أو بعث أبوها، من يتوسط لردّها ويحدث عما كان من نساته معها، فلم يملك ﷺ، إلا أن يبتسم ويقول:
«إنهن صواحب يوسف، وإن كيدهن عظيم!».

وبقى عند كلمته، فلم يمك تلك التي عاذت بمعاذ، وتخلصت عائشة من منافسة خطيرة!

* * *

وأما «مارية» المصرية، فلعل «عائشة» لم تأبه لها أول الأمر. إذ كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق في منزل دون منازل أمهات المؤمنين. وربما استكثرت «عائشة» عليها أن تعدّها منافسة لها.

حتى نباتها حفصة بما كان من خلوه، عليه الصلاة والسلام، في بيتها

(١) اختلفت الروايات في اسم التي استعازت بالله عندما دخل عليها ﷺ، فقيل هي أساء بنت النعان، وقيل هي ابنة عم لها من كندة، كذلك (السيرة ٤/٢٩٧). وفي الطبري أنها ملكة بنت داود اللثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلاية (١٣٩/٣) وانظر: المحبر لابن حبيب (٩٤) وعميون الأثر (٣١٠/٢).

جمارية، فكأنما أشعلت فيها النار^(١).

ولجت عائشة في غيرتها، والنساء يظاهرنها على النبي ﷺ، غيظا من «مارية» التي حملت دونهن من المصطفى، وترفق ﷺ بهن ما استطاع، مقدرا بواعث هذا التظاهر، لكنهن تمادين في اللجاج إلى حد الشطط، لطول ما أملى لهن ﷺ.

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك الشطط النسوى المسرف، ولا كان بحيث يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل، فاعتزلهن جميعا في صرامة لم يألّفنها، وشاع في المسلمين أن النبي ﷺ طلق نساءه، وانكمشت المتظاهرات في بيت النبي حزينات ناديات، فقد جاوز الأمر ما قدّرن، وما لهن من عاصم في المحنة، إذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام.

على أن «عائشة» - قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات - لم تفزع لغضب رسول الله، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة. وكان قلبها يتمزق، كلما تمثلت الحبيب يأوى إلى خزانة له ذات مشربة^(٢)، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل، ويجلس غلامه «رباح» على عتبها

(١) يأتي حديث تظاهرها على النبي ﷺ، ونزول سورة التحريم، بمزيد تفصيل في مبحثي: حفصة، ومارية، رضى الله عنها.

(٢) انظر وصف المشربة التي اعتزل فيها الرسول نساءه، بكتاب (وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى). للسهمودي: ٤٦٣/٢.

مع المتفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه في الإيلاء والتحريم.

ما أقام عليه الصلاة والسلام بها، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح.

ومضى شهر بأكمله والمصطفى في شغل عنهن، و«عائشة» في شغل به، وأمّهات المؤمنين مروعات بالهجر، والمسلمون يرقبون نبيهم عليه الصلاة والسلام في عزلته دون أن يجروا على مفاتحته في موضوع نسائه، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(١).

* * *

ولكن النبي لم يطلق نسائه، ولطف الله بهن فاكتفى بإنذارهن إن لم يتبن فعسى ربه إن طلقهن، أن يبده أزواجا خيرا منهن^(٢)! وقال: «ما أنا بداخل عليهن شهرا» من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى^(٣).

وطارت البشرى إلى أمّهات المؤمنين أن النبي ﷺ عائد إلى بيته بعد إيلائه منهن تسعا وعشرين ليلة، فَوَقَّفْنَ بأبوابهن في لهفة يلتصن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله، على حين بقيت «عائشة» داخل بيتها تستعد للقاء الحبيب العائد، إذ كانت تعرف عن يقين أن إليها أول المطاف!

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها. ولاذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة في عتاب رقيق: «بأبي أنت وأمي يا نبي الله! قلت كلمة لم ألق لها بالا فغضبت علي»

(١-٢) يأتي حديث عمر، في مبحث ابنته حفصة رضى الله عنها.

(٣) بلفظ عمر، رضى الله عنه، في الحديث المتفق عليه.

وإذا قبل عليها مصغيا، استطردت تقول في دلال ودعابة حلوة:
 «أقسمت أن تهجرنا شهرا، ولما يرض منه غير تسع وعشرين؟»
 فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام، وقد سره أنها كانت تحصى ليالى
 الفراق عداً..

وقال لها إن شهرهما ذاك، تسع وعشرون ليلة..

ونجت «عائشة» من محنة الهجر، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة
 منكرة، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها، وأوشكت على
 الضياع...

تلك كانت محنة الإفك، ننقلها فيما يلي، من حديث السيدة عائشة أم
 المؤمنين رضى الله عنها.

محنة الإفك

حدث ذلك في نحو السنة السادسة للهجرة، في غزاة بنى المصطلق، بالمريسيع، وفيها قال أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله عز وجل مما قالوا.

وكان عليه الصلاة والسلام في خروجه لغزوة بنى المصطلق، أقرع بين نسائه على عادته، كلما خرج في سفر أو غزوة، فخرج سهم «عائشة». وانطلقت في صحبته سعيدة هائلة.

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى، فعاد من غزاته منتصرا، وسار ركبہ الظافر يغذ السير إلى المدينة التي كانت إذ ذاك تهزج بأغاني النصر..

وفي الطريق - قريبا من المدينة - أناخ العسكر فباتوا بعض الليل، ثم أذن فيهم بالرحيل، فارتحلوا، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا.

وبلغ الركب المدينة في مطلع الصبح، واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها، وأنزل الهودج في رفق، فإذا أم المؤمنين ليست فيه!

ولبت ﷺ وصحبه ساعة من نهار، حائرين قلقين، وانطلق بعضهم في الطريق يلتمسون العريزة الغائبة...

حتى بدت من بعيد، تركب بعيرا، يقوده رجل عرفوا فيه «صفوان ابن المعطل السلمى». واطمأن النبى ﷺ، أن وجدها بخير. وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئا.

قالت رضى الله عنها^(١).

«خرجت لبعض حاجتى، قبل أن يؤذن في الناس بالرحيل، وفي عنقى عقد لى فيه جزع «ظفار» - مدينة باليمن - فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى. فلما رجعت إلى الرجل ذهبت ألتسمه في عنقى فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتسمته حتى وجدته، وجاء القوم - وأنا بعيدة - فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه - إذ كنت خفيفة لم يُثقلنى اللحم - فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يَشْكُوا أنى فيه. ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس...

«فتلففت بجلبابى، ثم اضطجعت في مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلىء فوالله إنى لمضطجعة، إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبيت مع الناس، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىء فعرفتى - وكان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال:

(١) حديث الإفك مروى بتمامه في (الصحيحين) وجمهرة كتب الأسانيد والسنن وفي طبقات ابن سعد، والسيرة لابن إسحاق - والنقل منه (٣/٣) مع زيادة من الصحيحين، وعيون الأثر (١٠٣-٩٦/٢) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهرى، بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

«إنا لله وإنا إليه راجعون، طعينة رسول الله ﷺ! ما خلفك يرحمك الله؟! »

فما كلمته.. ثم قَرَّب البعير فقال: اركبني.
واستأخر عني، فركبت، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب
الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت، حتى أصبحت ونزل الناس.
وطلع الرجل يقود بي..»

وأوت «السيدة عائشة» إلى فراشها فنامت هادئة، والمدينة يقظى
لا تنام! ذلك أن قوما من اليهود والمنافقين، على رأسهم «عبد الله بن
أبي ابن سلول» - الذي ما برئ من حقه على النبي ﷺ وما فتئ
يكيد له - تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات، ليشفوا
وترهم وأحقادهم..

وانتقل حديث الإفك من دار «ابن سلول» ومن لفّ لفه، إلى أحياء
المدينة، وردده ناس من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت الأنصاري»
شاعر النبي ﷺ، و«مسطح بن أثانة بن عباد» قريب أبي بكر وموضع
بره، و«حمنة بنت جحش» ابنة عمة النبي ﷺ وأخت زوجته زينب!..
وبلغ الحديث أذنى محمد ﷺ، كما بلغ مسامع أبي بكر وأم رومان
فصكها صكا! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة
الرهيبية؛ إذ كانت منذ عادت من غزوة بني المصطلق، معتلة تشتكي
شكوى شديدة، فظلت لا تدري ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من
ذلك شيء، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عودها إذا
اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه، فأمست هذه المرة
ولا حظَّ لها من ذلك العطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين إلى

حين، وعندها أمها ترضها فيسأل:

«كيف تيكم؟» ثم ينصرف، لا يزيد على ذلك!

ولم تشأ أن تسأله عما يريها من جفائه، فقد كان يبدو لها واجبا مشغول البال، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلان، فتأسكت متجلدة، وهي تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التي غشيت دنياها.

فتقول «السيدة عائشة»:

«حتى وجدتُ في نفسي فقلت، حين رأيت ما رأيت من جفائه لى: يا رسول الله، لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فمرضتني؟ قال: لا عليك.

»فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة...

«فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى «أم مسطح» بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف - وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبى بكر - فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت: تَعَسَ مِسْطَحُ!

قلت: بشى لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا! فقالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قلت: وما الخبر؟

قالت: نعم والله، لقد كان....

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت فما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، وقلت لأمى:

- يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً؟

قالت: أى بنية! خَفَضَ عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كَثُرْنَ وكثر الناس عليها! لكن «عائشة» باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

وبعيدا عنها كان ﷺ يعانى مثل الذى تعانيه: قلبه يحدثها أنها ضحية اتهام ظالم فادح، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء. وقد قام فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق؟... والله ما علمت عنهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى». فتكاد أفئدة المسلمين تتقطع تأثرا لبنيهم فى محنته وعذابه، ويشيرون غضبا لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حرة، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

وتمضى عائشة رضى الله عنها فى وصف محنتها فتقول: «ونزل رسول الله ﷺ فدخل على، فدعا «على بن أبى طالب وأسامة ابن زَيْد» فاستشارهما.

فأما أسامة فأثنى على خيرا وقال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منها إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل.

وأما «علي» فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

«فدعا رسول الله ﷺ جاريتي «بريرة» ليسألها: فقام إليها «علي بن أبي طالب» وهو يقول:

- اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتقول «بريرة»: والله ما أعلم إلا خيرا، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله!»^(١)

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد.

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبي بكر، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجنان تبكى، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها في صمت وأسى.

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك، جلس عليه الصلاة والسلام، يحدث عائشة، قال:

«يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله، إن الله يقبل التوبة من عباده».

(١) انظر تعليق الإمام النووي في شرح مسلم، والحافظ ابن حجر في فتح الباري، على موقف الإمام على كرم الله وجهه (اللوؤ والمرجان، هامش ح ١٧٦٣) ٢/٢٥٩.

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت، وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها، فالتفتت إلى أبيها، منتظرة أن يجيبها عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذ سكتا لا يحيران جواباً، صاحت فيهما بلاء عذابها: ألا تحبيان؟ قالاً معاً بصوت تخنقه العبرات: والله ما ندرى بم نجيب!

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل في كيائها، ثم اتجهت إلى زوجها تقول في إصرار:

«والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى بريئة، لأقولن ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت ما يقولون، لاتصدقوننى».

وحاولت أن تتذكر اسم «يعقوب» لتتأسى به فما استطاعت، واستطردت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت، واضطجعت على فراشها.

فلم يبرح النبي ﷺ مجلسه عندها، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى، فسُجى بثوبه، ووُضعت له وسادة من آدم تحت رأسه. وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما، فرقاً وقلقاً، وأما هى فما فزعته ولا خافت، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها.

ثم سُرى عن رسول الله، ﷺ فجلس مسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك!»

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جائم، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها، فقالت عائشة في إباء: «والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي».

ثم التفتت إلى أبيها وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناها نديتان بالدمع فرحا وانفعالا، فقالت له: «يا أبتاه هلا كنت عذرتني!» فأجاب: «أى سماء تظلني وأى أرض تقلني إن قلت بما لا أعلم؟».

وأما النبي ﷺ، فرنا إليها في عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور:

إِنَّ الَّذِينَ
جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ① لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَبَرًا وَفَالْوَاهِدَا إِفْكٌ مُبِينٌ ② لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَإِذْ لَا يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ③ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَمْ تَكُم فِي مَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ④ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُكُمْ
مَّا أَتَيْتُمْ بِكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ⑤ وَلَوْلَا
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَّكِمَ بِمَا جَاءَنَا هَذَا بَشَرًا هَذَا
بَشَرٌ ⑥ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً لَنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ⑦ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑧
 إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑨

وبأمره تعالى، جلد الذين تقولوا بالفاحشة:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
 ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④

صدق الله العظيم (سورة النور: ٤)

العروة الوثقى

وعادت السيدة «عائشة» إلى مكانها في البيت المحمدى، تحف بها هالة من آيات التور، نصرا إلهياً جعل براءتها من الإفك الأثيم، قرآنا يتعبد به المسلمون...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة، مزهوة بصباها ودلاها وجظوتها عند الحبيب، وتباهى ضرائرها قائلة:

«أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى!»

ولافتتاً تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام:

«حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى».

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟

قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب...» فعُدَّ رجالاً.^(١)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

قال لى رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم متى كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى» قلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ: «أما إذا كنت راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب (٢/٢٠١) ومسلم فى كتاب الفضائل. والنقل من البخارى.

إبراهيم». قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهرج إلا اسمك» متفق عليه^(١).

و«حديث أم زرع» مشهور، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن، وتعهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئاً. فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو من أبويه، فلما جاء دور أخرهن «أم زرع» تحدثت عن زوجها «أبي زرع» فأثنت عليه أطيّب الثناء، وأسهبّت في وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته.

قالت السيدة عائشة بعد أن حكّت خبرهن؛ قال لى رسول الله ﷺ: «كنتُ لكِ كأبى زرع لأُم زرع»^(٢).

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبي ﷺ، فيتحرّون بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ^(٣). ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو في بيت عائشة، إلا أن الغيرة استفزتهن، فتشاورن في وضع حد لما يلقين من بنت أبي بكر.

وانتهى بهن الرأي إلى أن يلتمسن من «السيدة فاطمة الزهراء» مخاطبة أبيها ﷺ في الأمر. واستجابت رضى الله عنها فدخلت على أبيها

(١) صحيح مسلم: باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٣٩) والنقل منه. وأخرجه البخارى في كتاب الغيرة (١٨٦/٢). وابن سعد بسنده إلى عروة بن الزبير، عن خالته عائشة رضى الله عنها (الطبقات الكبرى ٦٩/٨).

(٢) متفق عليه من فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها.

وشرحه القاضى عياض في كتاب مفرد، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، ح (٢٤٤١) واللفظ منه. وصحيح البخارى في كتاب

الهيبة. والإصابة ١٤٠/٨.

ﷺ وعائشة عنده فقالت: يا أبى، إن نساءك أرسلننى إليك، وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة، فقال لها: «أى بنية، ألسن تحبين ما أحب؟».

قالت: بلى. قال: «فأجبنى هذه».

فعدت إليهن فأخبرتهن بالذى سمعت من أبيها ﷺ، وقالت: «والله لا أكلمه فيها أبداً»^(١).

* * *

وقد ظلت السيدة عائشة رضى الله عنها، تبارك ما عاشت، الشهر الذى خطبها فيه النبى ﷺ، وبنى بها فيه، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلهن فى شوال، وتقول:

«تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى منى؟»^(٢).

وحين كانت الغيرة تشتط بها، كان النبى ﷺ يوسع لها العذر فيقول: «ويحها، لو استطاعت ما فعلت!»

وفى صحيح الحديث عن عروة بن الزبير، عنها: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرتُ عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال: «ما لك يا عائشة؟ أغرتِ؟» فقلت: وما لى لا يغار مثلى على مثلك؟^(٣).

وصدقت «عائشة»...

(١) صحيح مسلم، الفضائل: ح (٢٤٤٢). والإصابة، من طريقه، فى ترجمتها رضى الله عنها.

(٢) صحيح مسلم، كتاب النكاح: ح (١٤٢٣).

(٣) صحيح مسلم، ح (٢٨١٥).

وكتبت السيدة الزميلة «الدكتورة زاهية قدورة»، في رسالتها للدكتوراه عن «عائشة أم المؤمنين»: «إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضى بها قواعد الدين والعدل... وإن الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج أن يصفوها... ولعل ما يرد على هؤلاء، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر، وتفانيهن في إرضاء زوجهن رسول الله».

سبحان الله! وما لها لا يغار مثلها على مثله؟

هل كانت غيرتها الجاحمة - بعد هذا كله - إلا مظهر حب عميق لزوجها المصطفى، ودليل تعلق بالرسول ﷺ، ورغبة لاتقاوم في الاستئثار به؟

وفيمَ تكلفنا نفى هذه الغيرة عنها ووصفنا ما بينها وبين ضرائرها «بالاتفاق الرائع».

لقد غارت من السيدة خديجة رضى الله عنها، وقد ماتت ولم ترها عائشة قط. ولم تنج من غيرتها حفصة، وإنها لأقرب ضرائرها إليها، وفي (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها: «أن النبی ﷺ أقرع بين نسائه، في سفر» فخرجت القرعة لعائشة وحفصة»، وكان النبی ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبن الليلة بعيرى وأركب بعيرك تنظرين وأنظري؟ فقالت: بلى. فركبت فجاء النبی ﷺ إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا، وعائشة تدعو على نفسها تقول: (يارب سلط على عقربا أو حية تلدغني) ولا أستطيع أن أقول له شيئا - متفق عليه.

الوداع

كانت السنوات التي تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث... والسيدة «عائشة» مع الحبيب ﷺ تشهد انتصاره، وتتلقاه عائدا مظفرا من مغازيه ومشاهده، وترى دعوته وهي تنتشر وتمتد، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل.

ثم آن للقائد أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة... وأن للرسول البشر، أن يرجع إلى ربه، بعد أن بلغ رسالته. عاد من حجة الوداع سنة عشر إلى «المدينة» فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة، فخرج إلى البقيع يحیی الراقدين هناك ويستغفر لهم. قالت عائشة، فيما أسند ابن إسحاق عنها: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعا في رأسي وأنا أقول: «وا رأساه!» فقال: «بل أنا والله يا عائشة وا رأساه!»

ثم قال: «وما ضرك لو مُتَّ قبلي فقُمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك؟»

ردّت وقد هاجت غيرتها:
قلت: «ليكن ذلك حظ غيري! والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! فتبسم رسول الله ﷺ.

وتتألم وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمرَّضَ في بيتي فأذنَّ له»^(١).

وفي (الصحيحين) من حديثها رضى الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذى مات فيه، يقول: «أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها»^(٢).

وانتقل إلى بيت الحبيبة تمرضه، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، وقد ثقل، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس» فقالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقيم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرت عمر؟ فقال: «مروا أبا بكر أن يصلى بالناس...» الحديث^(٣).

قالت عائشة: «لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ، عن أبي بكر»^(٤). قالت:

«وقبض رسول الله ﷺ بين سحري ونحري... فمن سفهى وحدائة سنى أنه ﷺ قبض وهو في حجرى، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى»^(٥).

* * *

(١) بلفظ ابن إسحاق، في السيرة (٢٩٢/٤) بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) متفق عليه من حديثها (فضائل الصحابة في اللؤلؤ والمرجان: ١٥٨٣).

(٣-٤) متفق عليه من حديثها (ك الصلاة، اللؤلؤ: ح ٢٣٩، ٢٣٧).

(٥) ابن إسحاق في (السيرة ٣٠٥/٤) بإسناده عن عباد بن عبد الله بن الزبير عنها.

وتاريخ الطبري: ١٦٧/٣ والنقل منه - ونحوه في صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ح (٢٤٤٤).

وكادت تكون فتنة، عصم الله المسلمين منها حين ألهم «أبا بكر» أن يقف في المسلمين فيقول:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت...»

ثم تلا فيهم قوله تعالى في كتابه المنزل على رسوله ﷺ:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُ
مَاكَ أَوْ قِيلَ أَفَلَتُبْتَلَىٰ عَلَىٰ أَغْصَانٍ ۖ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَىٰ عَفْصٍ فَلَنْ
بُصِّرَ اللَّهُ نَبِيًّا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها «أبو بكر» يومئذ^(١).

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ في بيت «عائشة»،
وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده...

* * *

وعاشت «عائشة» لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة، والفقيهة الأولى في الإسلام.

قال مسروق بن الأجدع الهمداني، التابعي الفقيه الإمام القدوة:
«لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها في الفرائض».

وكان إذا حدث عنها قال: «حدثني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله...»^(٢).

(١) صحيح البخاري، مناقب أبي بكر، رضى الله عنه.

(٢) من ترجمتها في طبقات ابن سعد: ٦٦/٨ - ٧٧ والاستيعاب: ١٨٨٣/٤، والإصابة

وقال الإمام «الزهرى»: «لو جُمِعَ علم عائشة، إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.»

وقال هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه: «ما رأيت أحدا أعلم بفقهِ ولا بطب ولا بشعر من عائشة» وعن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه قال: «ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما».

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية، وتشارك فى حياة الإسلام أقوى مشاركة، وتظهر فى معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الإسلامى منذ مقتل «عثمان بن عفان» رضى الله عنه.



ثم توفيت رضى الله عنها فى السادسة والستين من عمرها، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث، فى الكتب الستة.

وكانت وفاتها - على الأرجح - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين، وصلى عليها «أبو هريرة» رضى الله عنها ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع - كما أوصت - على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة، فلم تُرَ ليلة أكثر ناسا منها.

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين، وقد ألقى الموت ما كان بينها

وبينهم من غيرة وتنافس، وأخذ الزمن ذاك اللهب الذى توهج أعواما فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف.

وفى (صحيح البخارى) أن عائشة رضى الله تعالى عنها أوصت عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع^(١).

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد، وعبد الله ابن أخيها عبدالرحمن، وكلهم من رواية الحديث عنها^(٢).

* * *

ونامت أخيرا، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة، من الشهر المبارك، شوال، الذى شرفت فيه بالزواج من خير البشر، خاتم النبیین عليهم وعليها السلام...

* * *

(١) وانظر وصف قبرها وموضع، فى (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسهودى: ٩١٣/٣.

(٢) طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة، وتهذيب التهذيب: فى ترجمتها رضى الله عنها.

(٤)

حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ

حَافِظَةُ الْمَصْحَفِ الشَّرِيفِ

«.. يا بنية لا يغرنكِ هذه التي أعجبها
حسنُها وحبُّ الرسول ﷺ إياها. والله لقد
علمتِ أن رسولَ الله لا يحبك، ولولا أنا
لطلقك»

عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فى (الصحيحين)

الأرملة الشابة

لم يشهد «بدرا» من بنى سهم غير رجل واحد، هو الصحابي الجليل «خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمي القرشي» وكان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها، ثم إلى المدينة، وشهد «أحدا» كذلك، ثم مات بعدها في دار الهجرة، من جراحة أصابته في «أحد» وترك أرملته «حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية».^(١)

وتألم «عمر» لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها. وأوجعه أن يلمح الترميل يغتال شبابها ويمتص حيويتها. وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته في حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجا، قد تأنس إلى صحبته فتسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد...



وقع اختياره على «أبي بكر الصديق» صفى النبي ﷺ، وصهره، وصاحبه، وأول رجل آمن وباع...

وارتاح للفكرة، فإن أبا بكر في رزانة كهولته وسباحة خلقه ووداعة

(١) انظر السيرة: ٦/٣ وطبقات ابن سعد: ٨١/٨، ٣٤١ وتاريخ الطبري: ١٧٧/٣ - وترجمة خنيس في طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة. ومعها: وفاة الوفا: ٩٠٠/٣. وانظره في نسب بنى سهم في جمهرة الأنساب ١٥٦، والمحبر لابن حبيب ٨٣، ونسب قريش ٤٠٢.

طبعه، كفيل بأن يحتمل «حفصة» بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر.

وأرضاه أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ﷺ.

ولم يتردد عمر، بل سعى من فوره إلى أبي بكر، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصفى إليه في عطف ومواساة.

ثم عرض عليه أن يتزوجها، وفي يقينه أن «أبا بكر» سيرحب بالشابة التقية، ابنة الرجل الذي أعز الله الإسلام به.

لكن «أبا بكر» أمسك لا يجيب!...

وانصرف «عمر» لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه.

وسارت به قدماه إلى دار «عثمان بن عفان» وكانت زوجته السيدة «رقية بنت محمد» ﷺ قد مرضت بالحصبة - بعد عودتها من الحبشة - والمسلمون يلقون عدوهم في بدر، ثم ماتت بعد أن تم النصر للمؤمنين^(١).
وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه «حفصة» وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله قد اختار لحفصة «عثمان» وهو تعالى، يعلم أن الرجلين أصلح للأرملة الشابة.

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما، جاءه بعدها فقال:

(١) انظر حديث السيدة رقية رضى الله عنها في كتابنا «بنات النبی» ﷺ.

«ما أريد أن أتزوج اليوم!»^(١).

فاغتاط «عمر» رضى الله عنه من قسوة الموقف، ثم اشتد به الغضب، فانطلق إلى النبي ﷺ يشكو صاحبيه..

أمثلُ حفصة - فى شبابها وتقواها وشرفها - تُرفَضُ؟
ومن؟ من أبى بكر وعثمان، صاحبي الرسول ﷺ وصهره، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر، وأحق الصحابة ألا يردًا مثله صهرا؟
واستأذن «عمر» على النبي ﷺ، وما يملك نفسه من غضب وقهر، فتلقاه عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يؤلمه...

ونفض «عمر» لدى النبي الكريم ما يرهقه ويقهره، وحدثه عما كان من «أبى بكر بن أبى قحافة، وعثمان بن عفان»...
فتبسم ﷺ وقال:

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»^(٢).

وردد عمر مأخوذاً بجلال المفاجأة: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟»

(١) هذه رواية الاستيعاب «١٨١١/٤» والإصابة ٥١/٨، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية بطبقات ابن سعد من عدة طرق (٨١/٨) والسمط الثمين ٨٣، أن عمر عرض حفصة على عثمان، ثم على أبى بكر، رضى الله عنهم.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨٢/٨، والاستيعاب: ١٨١١/٤، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢، والسمط الثمين ٨٣.

وأشرفت في خاطره لمحة مضيئة. أيتزوج النبي ﷺ، ابنته حفصة؟
ذاك والله شرف لم تتناول إليه أمانيه.

وقام إلى النبي ﷺ يصافحه متهللاً، وقد زال عنه ما كان يجد من
مهانة الرفض.

وخرج مسرعاً ليزف إلى ابنته، وإلى أبي بكر وعثمان، وإلى المدينة
كلها، بشرى الخطبة المباركة.

ولقيه أبو بكر، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته،
فمد يده مهنئاً معتذراً يقول:

«لا تجد عليَّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ، ذكر حفصة، فلم أكن
لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها»^(١).
ومضى كلاهما إلى ابنته:

أبو بكر ليهون على «عائشة» من وقع الخبر.

وعمر ليبشر «حفصة» بأكرم زوج.

وباركت المدينة يد النبي ﷺ وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو
جراح ابنته حفصة.

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من «أم كلثوم بنت محمد» في جمادى
الآخرة، من السنة الثالثة للهجرة.

وتهاً بيت النبي ﷺ لاستقبال «حفصة» التي تزوجها المصطفى في شهر

(١) ترجمة السيدة حفصة أم المؤمنين، في (طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة) ومعها
عيون الأثر ٣٠٢/٢ والسمط: ٨٣.

شعبان، من تلك السنة على الأرجح^(١).
 أسند ابن سعد عن سعيد بن المسيب، سيد التابعين، وذكر حديث
 الخطبة؛ قال:
 «فخار الله لهم جميعا: كان رسول الله لحفصة خيرا من عثمان، وكانت
 بنت رسول الله ﷺ لعثمان، خيرا من حفصة»^(٢).

(١) ابن سعد: ٨٣/٨ تاريخ الطبري: ٩/٣، الاستيعاب، الإصابة، وفاء الوفا للسهمودي:
 ٩٠٠/٣.

وأرخ الذهبي زواجها: في شهر رمضان (العبر: وفيات السنة الثالثة للهجرة).
 (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨٣/٨.

السُّرُّ المُّذَاع

جاءت العروس، وفي البيت «سودة» و «عائشة».

أما «سودة» فرحبت بها راضية، وأما «عائشة» فغاظها أن يأتيها زوجها ﷺ بضرة، وما فعل ذلك قط مع «خديجة».

وضايقتها ألا تجد في «حفصة» مغمزا، فهي مَنْ هي، شبابا وتقى، وعزة نسب...

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة. وحظ «حفصة» من هذين، ليس بالذى ينكر أو يجحد.

و«عائشة» كانت تضيق بيوم «سودة» التي ما اكرثت لها عائشة كثيرا حتى تنازلت لها عنه، فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة؟

وحارت في أمرها، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر وباركه الإسلام والمسلمون.

وسكتت على مضض وغبرة، إلى أن وفدت على بيت النبي أزواج جديداً، فتناست «عائشة» ما كانت تجد من «حفصة» وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها، وأجدرهن بأن تقف معها...

وأدركت «حفصة»، أنها إذا جازها أن تنكر ضرة لها، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هي «عائشة» وقد سبقتها إلى بيت النبي ﷺ، وإلى قلبه.

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة، لكنها حين توالى الضرائر، وقفت دون تردد، إلى جانب بنت أبي بكر.

وكان «عمر» يرقب ابنته حفصة في قلق مبهم، فيريه هذا التقارب - غير الطبيعي - بين ابنته وبين بنت أبي بكر، فلما استبان له ما وراء تقاربها من انتمار بالزوجات الأخريات، كره لحفصة أن تسير صاحبته وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه. فأقبل على ابنته يحذرهما أن تتشبه بعائشة الحبيبة، ويردها عن جموحها بمثل قوله:

«أين أنتِ من عائشة، وأين أبوك من أبيها؟»

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فمضى من فوره حتى دخل عليها فساها إن كان ما سمعه حقا؟ قالت بأنه حق فزجرها قائلا:

«تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله... يا بنية، لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنُها وحب رسول الله ﷺ إياها، والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك!»^(١)

ويمضى عن «حفصة» وفي حسابه أنه قد ردها إلى ما يبغى لها من

(١) متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء والتحريم.

خضوع وبجاملة، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلةً بشخصيتها، لا ترى في منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس في طبعها. بل تركت نفسها على سجيتها، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها، عليه الصلاة والسلام، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها، وربما سمعت منه حديثاً فردت عليه غير متهيبة إذا بدا له وجه آخر فيها يقول. في الصحيح من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عن أم مبشر الأنصارية، رضى الله عنهم، أنها سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة، يذكر أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» قالت حفصة: بلى يا رسول الله! وتلت الآية: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾^(١).

ولعل إباءها هو الذي فرض عليها أن تدارى غيرها من «عائشة» وتحاول أن تلتصق في صحبة هذه الشابة المرححة، ومشاركتها في معاركها الصغيرة ومواقفها الذكية، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوى...

ويرخى لها النبي ﷺ ما استطاع، ويشفع لها عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته، وبنوتها لأعز أصحابين.

حتى تظاهرتا عليه، ﷺ، فكان الهجر واعتزاله، ﷺ، نساءه «من شدة موجدته عليهن» وفي تظاهرها نزلت آيات التحريم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: من فضائل أصحاب الشجرة، أهل بيعة الرضوان، رضى الله عنهم. وابن سعد، بإسناده، في غزوة الحديبية: الطبقات الكبرى: ٧٣/٢ ط ليدن - والآيتان من سورة مريم: ٧١، ٧٢.

وفي المتفق عليه من حديث عمر، رضى الله عنه، قال ابن عباس، رضى الله عنهما قال: «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة» الحديث بطوله^(١).

وفي رواية لحديث ابن عباس عن عمر، متفق عليها كذلك، «أنه سأله: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ قال: عجا لك يا ابن عباس: هما عائشة وحفصة» الحديث بطوله، وفيه قال عمر: فاعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث، حين أفضته حفصة إلى عائشة...^(٢).

وتعددت المرويات في السر الذي نبأت به، وفي أسباب نزول آيات التحريم، وقد سبق حديث عائشة، المتفق عليه، في نزول التحريم في مكثه ﷺ عند زينب بنت جحش، تسقيه عسلاً يحبه، فتواطأت عائشة وحفصة، أيتهما دخل عليها ﷺ فلتقل: إني أجدر ریح مغاير، أكلت مغاير؟ أو كان التواطؤ على حفصة، بين عائشة وسودة وصفية.

وأسند الواقدي من عدة طرق، عن ابن عباس وعدد من الصحابة رضى الله عنهم، أن النبي ﷺ خلا بمارية في بيت حفصة وكانت قد

خرجت، فجاءت ومارية معه، فبكت مقهورة فاسترضاها ﷺ بأن أسر إليها أن مارية عليه حرام، من يومئذ، على أن تكتم حفصة السر، فأنبأت به عائشة^(١).

وفي رواية بصحيح البخارى، أنهم تظاهروا في طلب التوسعة في النفقة، وفي أخرى عن عمر رضى الله عنه قال: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، الحديث.

وقد خرج الحافظ ابن حجر حديث عمر، وغيره، في التظاهر والتحريم من مختلف الطرق وقال: «والراجع من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهم... ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت، فأشير إلى أهمها»^(٢).

وهذا الذى رجحه الحافظ ابن حجر، هو المتداول فى كتب الفقه، فى سبب نزول سورة التحريم^(٣). وهو المتداول أيضا فى كتب التفسير. وعليه اقتصر الواحدى فى «أسباب النزول» لسورة التحريم.

وفى حديث عن ابن عمر، رضى الله عنهما: أن عمر دخل على حفصة وهى تبكى، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك لا كلمتك كلمة أبدا^(٤). وفى هذا الارتجاع تختلف الروايات، فمنها أن ذلك كان رحمة بعمر

(١) الطبقات الكبرى: ١٨٦/٨ - ١٨٧.

(٢) فتح البارى: ٢٣٣/٩.

(٣) القاضى عياض فى شرح مسلم، على هامش ١١٠٠/٢.

(٤) رواه الطبرانى، رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٢٤٤/٩) والإصابة، من طريق

الذى حثا التراب على رأسه وقال: «ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها»
 فنزل جبريل عليه السلام من الغد وقال للنبي ﷺ: «إن الله يأمرك أن
 تراجع حفصة، رحمة بعمر».

وفي رواية أخرى أن جبريل عليه السلام قال: «أرجع حفصة، فإنها
 صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة»^(١).

والراجح أن هذا الطلاق الرجعي، كان قبل تظاهرها على النبي
 ﷺ، فلما اعتزل نساءه، كان من الطبيعي أن يكون إحساس حفصة
 بالذنب والندم، أقوى وأشد من إحساس الأخريات، فما كان لها وهي
 التقية العابدة، أن تفشى سرا ائتمنها عليه رسول الله ﷺ، ولا أن تقابل
 بذلك ترضيته لها بتحريم حلال له.

وفي حديث عمر لابن عباس، رضى الله عنها في تظاهر عائشة
 وحفصة، ذكر أنه كان له جار من الأنصار يتناوبان النزول على النبي
 ﷺ، فيخبر كل منهما صاحبه بما حدث في نوبته. قال عمر: وكنا قد
 تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا. فنزل صاحبى الأنصارى يوم نوبته،
 فرجع إلينا عشاءً فضرب بابى ضرباً شديداً وقال: أئتم هو؟ ففرغت
 فخرجت إليه فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم. قلت: ما هو؟ أ جاء
 غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول: طلق النبي ﷺ نساءه.
 فقلت: خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون،
 فجمعت على ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ فدخل ﷺ مشربة

(١) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٢٤٤/٩) مع ترجمتها بالاستيعاب

له، فاعتزل فيها. ودخلت على حفصة فإذا هي تبكى، فقلت: ما يبكيك؟ ألم أكن حذرتك هذا؟ أطلقكن النبي ﷺ؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في المشربة. فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجده، فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت للغلام له - في رواية مسلم: أنه رباح - : استأذن لعمر، فدخل فكلّم النبي ﷺ ثم رجع فقال: كلمت النبي ﷺ وذكرتك له فصمت. فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجده فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر. فدخل ثم رجع فقال: قد ذكرتُك له فصمت. فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجده فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم رجع إلى فقال: قد ذكرتُك له فصمت. فلما وليت منصرفاً، إذا الغلام يدعوني فقال: قد أذن لك النبي ﷺ. فدخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف. فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله، أطلقت نساءك؟ فرفع إلى بصره فقال: «لا» فقلت: الله أكبر. ثم قلت وأنا قائم، أستأنس: يا رسول الله، لو رأيتني، وكنا معشر قريش نغلبُ النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم؟ فتبسم النبي ﷺ. ثم قلت: يا رسول الله، لو رأيتني، ودخلتُ على حفصة فقلت لها: لا يغرنكِ أن كانت جارتك أَوْضاً منك وأحب إلى النبي ﷺ - يريد عائشة - فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم...» الحديث.

ورُدَّت الروح إلى «عمر»، فاستأذن ونزل إلى المسجد.

فبشر المسلمين: «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَانَ أَرْوَاجَكَ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ
وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ② وَلَظَأَسْرَأَنَّيَ إِلَى
بَعْضِ أَرْوَاجِهِ، حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَزَفَ
بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ
هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ③ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ
وَجَزِيلٌ وَصَلِيحٌ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَدِينَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ④
عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكِ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ
قَاتِلَاتٍ تَبَنَّى عِدَّتٍ سَبْعَةٍ تَبَنَّى وَأَبْكَارًا ⑤

صدق الله العظيم (التحریم ١-٥)

الوديعة الغالية

وعت نساء النبي رضى الله عنهن هذا الدرس، وثابت «حفصة» إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما.

ولانعرف أنها من ذلك الحين، قد اشتركت في مؤامرة نسوية ببيت النبي ﷺ أو تسببت له فيما يكره ما عاش، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى كانت «حفصة» هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا - وفيهن عائشة - لتحفظ النسخة الأولى للمصحف الشريف.

ذلك أن «عمر» لما استحرَّ القتل بالصحابة في حروب الردة يوم اليامة، أشار على «أبى بكر» الخليفة الأول، أن يبادر فيجمع القرآن الكريم من صحفه المتفرقة، قبل أن يبعد العهد بنزوله، ويعضى حفظته الأولون، وقد استشهد منهم مئات في حروب الردة.

فاستجاب «أبوبكر» وجمع المصحف الشريف فكانت صحفه عند أبى بكر حتى توفى، ثم عند عمر حتى قبض، فأوصى إلى حفصة فكان المصحف عندها^(١). رضى الله عنهم جميعا.



في أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة، توفى

(١) الزركشى: البرهان في علوم القرآن (١/٢٣٤ ط القاهرة) من طريق البخارى. مع صحيح البخارى: ك الفضائل. وطبقات ابن سعد (٨/٨٤).

أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين. وتولى الخلافة من بعده، بعهد منه، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة، بالمقتل الفاجع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بطعنات من خنجر أبي لؤلؤة المجوسى، فى ليالى المحاق من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة.

وترك أمر الخلافة للسته أصحاب الشورى من كبار الصحابة، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وفى عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة. ونُسخت من المصحف العثمانى الإمام، نُسخ وُزعت على الأمصار.

بعد مقتل ذى النورين عثمان رضى الله عنه، فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، ببيع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه. وكانت الفتنة الكبرى التى خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين كرهوا البيعة، وحاربت معهم يوم الجمل. وقد عزمت على السيدة حفصة فى الخروج معها، فهتت بأن تستجيب لها، كالعهد بهما فيما مضى. لولا أن ردها أخوها: «عبدالله بن عمر» عن الخروج فى تلك الفتنة.

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامه صوامه، إلى أن توفيت فى عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية. وشيعتها المدينة إلى

مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن^(١).
 وبقي لها مع ذكراها أمّا للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف، ما روت
 من الحديث عن النبي ﷺ، وعن أبيها عمر رضى الله عنها. روى عنها
 أخوها عبد الله رضى الله عنه وابنه حمزة، في عدد من حفاظ التابعين...



(١) في سنة وفاتها خلاف، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين. انظرها في الطبقات
 الكبرى، والمحرر ٨٣، والاستيعاب والإصابة، وفي عيون الأثر (٣٠٢/٢). وتهذيب التهذيب
 ٤١٠/١٢.

(٥)

زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ
أُمُّ الْمَسَاكِينِ

«وكانت تسمى أُمَّ الْمَسَاكِينِ
لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»
ابن إسحاق: في السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على دخول «حفصة» البيت المحمدى غير وقت قصير، حين دخلته أرملة شهيد قرشى من المهاجرين الأولين، خامسة أمهات المؤمنين: «زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية».

ويبدو أن قصر مقامها ببيت النبى ﷺ، قد صرف عنها كتاب السيرة ومؤرخى عصر المبعث، فلم يصل إلينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف.

لم يختلفوا فى نسبها من جهة أبيها، كما صرح أبو عمر ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب، بعد سياق نسبها. وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها^(١).

وأما من جهة أمها، فأغفلته جمهرة هذه المصادر. ونقل ابن عبد البر فيها قول أبى الحسن الجرجانى على بن عبد العزيز النسابة: «وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث - أم المؤمنين - لأمها» قال ابن عبد البر: «ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم». وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر، ولم يعقب عليه.

قلت: بل ذكره كذلك، النسابة «أبو جعفر بن حبيب» فى مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قبل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية. أمها: «هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية» وأخوات

(١) الطبقات الكبرى، ونساء الاستيعاب والإصابة. والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤، وتاريخ الطبرى ١٧٩/٣، والمحرر لابن حبيب ٨٣، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢، وعيون الأثر ٣٠٢/٢، والسمط ١١٢.

ميمونة لأبيها وأمها: أم الفضل لبابة الكبرى أم بنى العباس بن عبد المطلب، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وعزة بنت الحارث... وأختهن لأمن: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية. وأسما بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبي طالب، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم على بن أبي طالب، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب...

قال: «ولا يُعلم امرأة في العرب كانت أشرف أصهاراً من هند بنت عوف، أم ميمونة وأخواتها»^(١).

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبي ﷺ، والراجح - والله أعلم - أنها كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فخلفه عليها أخوه عبيد بن الحارث، استشهد رضى الله عنه في بدر، فخلفه عليها النبي ﷺ.

وهي رواية ابن حبيب في المحبر، وابن سعد من طريق الواقدي والجرجاني النسابة - حكاه ابن عبد البر - وابن سيد الناس في عيون الأثر، والمحب الطبري في السمط، وأحد الأقوال في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

وقيل: كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد مناف فطلقها، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاه الطبري وابن عبد البر عن قتادة. والواقدي عن الزهري.

وفي السيرة الهشامية قال ابن إسحاق: إنها كانت عند عبيدة

(١) المحبر: ١٠٥ - ١٠٩ ومعه الإصابة: ٩٥/٨.

ابن الحارث بن عبد المطلب، وكانت قبله عند جهنم بن عمرو بن الحارث الهلالي، وهو ابن عمها.

وفي قول رابع: إنها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد في أحد، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاها ابن عبد البر - عن الزهري - وابن حجر في (الإصابة).

وعن «ابن الكلبي»: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها بيد، فخطبها رسول الله ﷺ. وفي الطبري:

«وفي هذه السنة - الرابعة - تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال، في شهر رمضان... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها».

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبي ﷺ.

في الإصابة عن «ابن الكلبي» أن رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها... وفي السيرة، رواية ابن هشام:

«زوجه إياها عمها: قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها ﷺ أربعمائة درهم».

واختلفوا رابعة في المدة التي أقامتها ببيت النبي عليه الصلاة والسلام:

ففي الإصابة رواية تقول: «كان دخوله ﷺ بها، بعد دخوله على

حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت».

ورواية أخرى عن ابن الكلبي:

«فتزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الآخر سنة أربع»

وفي (العبر) قال الذهبي:

«وفيها - يعني السنة الثالثة - دخل بزيب بنت خزيمه العامرية، أم المساكين، فعاشت عنده ثلاثة أشهر وتوفيت».

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدثين: ذكرها الدكتور هيكل باسم «زيب بنت مخزوم» في قضية زواج زيب بنت جحش. وجزم بأنها «قد كانت زوجاً لعبيد بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين» (!؟) كما جزم بأنها «لم تكن ذات جمال»^(١). ومبلغ علمي أنه ما من مصدر مما وقفت عليه، تعلق بوصف شكلها وصورتها.

وقال بودلى: «... تبع زواج محمد من حفصة زواج آخر، وكان زواجاً شكلياً أكثر من أى شيء آخر. كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث، ابن عم لمحمد سقط! في بدر، وكان اسمها زيب بنت خزيمه وما ضمها محمد إلى نسائه إلا بدافع الشفقة، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبداً، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر»^(٢).

(١) حياة محمد: ٢٨٨، ٢٩١.

(٢) الرسول: ١٧٦ من الترجمة العربية.

قلت: لم يطل بها المقام في بيت النبي ﷺ، ليقال إن زواجها كان شكلياً بدافع الشفقة.

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتاب السيرة في أمر زينب بنت خزيمة، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء، ولا يكاد اسمها يذكر في أى كتاب مما ذكرنا إلا مقروناً بلقبها الكريم: أم المساكين.

في السيرة الهشامية:

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»^(١)

وعن الزهرى، قال: تزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة، وهى أم المساكين. سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين. وهى من بنى عامر ابن صعصعة»^(٢).

وفى الاستيعاب والإصابة:

«وكان يقال لها أم المساكين. لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم». ومثله فى تاريخ الطبرى^(٣).

وأحتاج إلى أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد

(١) السيرة: ٢٩٦/٤.

(٢) رواه الطبرانى، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد: ٢٤٨/٩).

(٣) ٣٣/٣.

المدني» في مجلة الرسالة - عدد ١١٠٣ تاريخ ١٤/٣/٩٦٥ - قال ما نصه:

«وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هي أجودهن - يعنى أزواج النبي - وأبرهن باليتامى والمساكين... حتى كانت تعرف بأُم المساكين».

قلت: مصادرنا للسيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ، والأنساب تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة «زينب بنت خزيمة».

فلعل الوهم جاء من قول ابن الأثير في ترجمتها بأسد الغابة: ذكر ابن منده في ترجمتها حديث «أولكنَّ لحوقا بى أطولُكنَّ يداً» وقد تقدم في ترجمة زينب بنت جحش، وهو بها أليق لأن المراد بلحقهن موتهن بعده، ﷺ، وهذه، أى زينب بنت خزيمة، ماتت في حياته.

نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة، وقال: وهو تعقب قوى. وبأق حديث «أطولهن يداً» في ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش، رضى الله عنها.

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر «الواقدي» ونقله «ابن حجر» في الإصابة، ولم أقف على خبر عنها في حياتها الزوجية القصيرة، فحسبنا أن تمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبي ﷺ وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحریم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبي ﷺ، والمؤمنين، لا برهقها طمع ولا تنهكها غيره...

ورقدت في سلام، كما عاشت في سلام. وصلى عليها النبي ﷺ، ودفنها
 بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.
 ولم يمّت منهن في حياته ﷺ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى -
 ومدفنها بالحجون في مكة - والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين
 والمساكين.

* * *

(٦)

أُمّ سَلَمَةَ
بِنْتُ زَادِ الرَّكْبِ

«قالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب،
قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن
تدخل بين رسول الله وأزواجه! قال عمر:
فأخذتني، والله، أخذاً كسرتني به عما كنت
أجد...»

من حديث ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم
(متفق عليه)

العزة والجمال

خلا بيت «أم المساكين» في دور النبي ﷺ وقتاً غير قصير، ثم جاءت «أم سلمة» فشغلته.

اسمها: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية^(١).

قالت، فيما روى ابن سعد في (طبقاته) من طريق الواقدي بسنده إليها:

«... فتزوجني رسول الله ﷺ فنقلني فأدخلني بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين».

إنها ضرة جديدة عزيزة، عريق المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، تزفها إلى بيت النبي ﷺ أمجاد طوال عراض.

أبوها: أحد وجوه قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد ذهب على الدهر بلقب «زاد الركب» أن كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد.

وأما: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة

(١) السيرة ٣٤٥/١، ٢٩٤/٤، طبقات ابن سعد ٩٢/٨، تاريخ الطبري ١٧٧/٣، ونسب قريش ٢١٦، المحبر ٨٣، الاستيعاب ١٩٣٩/٤، السمط الثمين (٨٦)، الإصابة ٢٤٠/٨، عيون الأثر (٨٦/٢).

الكنانية، من بنى فراس الأجداد. وكان جدها علقمة، يلقب بجذل الطعان وزوجها الذى مات عنها: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، الصحابى ذو الهجرتين، ابن عمه المصطفى: برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه ﷺ، من الرضاعة، أرضعتها ثويبة، مولاة أبى لهب، كما فى الحديث المتفق عليه عن أم حبيبة رضى الله عنها، أنها عرضت أختها على رسول الله ﷺ، لما بلغها أنه خطب بنت أم سلمة فقال: «لو لم تكن ربييتى ما حلت لى، أرضعتنى وأباها ثويبة»^(١).

وكان لأبى سلمة، ولزوجه هند، إلى جانب النسب العريق، مكانتهما فى الإسلام، فقد كانا من بين السابقين الأولين، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة، حيث ولدت هند هناك ابنها «سلمة»^(٢).

ثم قدما مكة، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة، وقد ضرى اضطهاد قريش للمسلمين. فلما أذنَ النبى ﷺ لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب بعد بيعته العقبة الكبرى، أجمع «أبو سلمة» أمره على الهجرة بأهله، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال - على بعد العهد بها وتطاول الآماد - مثيرة أليمة الوقع.

حدثت «أم سلمة» رضى الله عنها، قالت:^(٣)

(١) السيرة: ١٠٢/٣، والاستيعاب (٦٣٩ - ١٦٨٢) وانظر أجمرة أنساب العرب: ١٣٤ ونسب قريش (٢٣٧). مع حديث أم حبيبة رضى الله عنها، فى ك الرضاعة باب تحريم الربيبة وأخت المرأة (اللؤلؤ ح ٩٢٠).
(٢) السيرة ٣٤٥/١.

(٣) ابن إسحاق: السيرة ١١٢/٢ والنقل منها، والسمط الثمين ٨٧، مع ترجمتها فى الاستيعاب والإصابة من طريق ابن إسحاق.

«... لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل بغيراً له وحملني وحمل معي ابني سلمة، ثم خرج يقود بغيره، فلما رآه رجال قومي بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، وأهواوا إلى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجي:

- والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به رهط أبيه، وحبسني بنو المغيرة عندهم.

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة. وفُرق بيني وبين زوجي وابني، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسى، سنةً أو قريباً منها.

حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها.

وما زال بهم حتى قالوا:

- الحقى بزواجك إن شئت.

وردَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فرحلت بغيري، ووضعت ابني في حجرى ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله...

حتى إذا كنت بالتنعيم - على فرسخين من مكة - لقيت عثمان ابن طلحة^(١) فقال: أين يا بنت أبي أمية؟

قلت: أريد زوجي بالمدينة.

فقال: هل معك أحد؟

فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا.

فقال: والله مالك من مترك.

وأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه. إذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه ورجله، ثم استأخر عني وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقاء - وكان بها منزل أبي سلمة في مهاجرة - قال: إن زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة.

(١) كان عثمان يومئذ على كفره، وإنما أسلم في هدنة الحديبية، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد. فلما فتحت مكة، دفع النبي ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة ابن عثمان بن أبي طلحة، وقتل عثمان شهيداً بأجنادين في خلافة عمر رضي الله عنها، وانظر ترجمته في الطبقات. والإصابة، والاستيعاب.

وكذلك كان زوجها أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ^(١).

وفي المدينة، عكفت على تربية صغارها، وتفرغ زوجها للجهاد. ولما خرج ﷺ في غزوة ذي العشيرة - في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، وهي الغزوة التي وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم بن ضمرة - اختار من بين أصحابه أبا سلمة، فاستعمله على المدينة^(٢). وشهد غزوة «بدر» الكبرى، فكان أحد ثلثائة وأربعة عشر رجلاً، تمَّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين، في أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد... ثم شهد يوم أحد، وأبلى فيه بلاء مشهوداً. ورُمى بسهم في عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم.

فلما أزجف المرجفون بالإسلام بعد «أحد» وبلغ النبي ﷺ بعد شهرين اثنين من الموقعة، أن بنى أسد يدعون إلى مهاجمته في دار هجرته، دعا إليه «أبا سلمة» ففقد له لواء سرية إلى قطن، وهو جبل بناحية فيد - ماء لبنى أسد بن خزيمه - ومعه مائة وخمسون رجلاً، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص...

ونفذ «أبو سلمة» ما أمر به النبي ﷺ من أخذ العدو على غرة، فأحاط بهم في عماية الصبح على غير أهبة منهم لقتال، وقاد معركة ظافرة، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين، قد أعادوا بعض ما ضيعت «أحد» من هيبة المسلمين^(٣).

(١) السيرة ١١٢/١ - ١١٣ وطبقات ابن سعد ٨/٨٧،

والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ١/١١٥. مع (فتح الباري ٧/١٧٦).

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٤ ط ليدن والسيرة ٢/٢٤٨، وعيون الأثر ١/٢٢٦.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٣٥، عيون الأثر ٢/٣٨.

في هذه السرية، انتكأ الجرح الذي أصاب أبا سلمة يوم أحد، فظل به حتى مات منه، لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة سنة أربع.

وحضره النبي ﷺ وهو على فراش موته، وبقي إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات، فأسبل بيده الكريمة عينيه، وكبر عليه تسع تكبيرات. قيل له: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟ فقال:

«لم أسه ولم أنس، ولو كبرتُ على أبي سلمة ألفاً، كان أهلاً لذلك»^(١).

في صحيح الحديث عن أم سلمة أن أبا سلمة، رضى الله عنها حدثها أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وعوضني خيراً منها) إلا آجره الله في مصيبته وكان قمينا أن يعوضه خيراً منها» فلما هلك أبو سلمة ذكرتُ الذى حدثني به عن رسول الله ﷺ فكننت أقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وعوضني خيراً منها) ثم قلت: أنى أعاضُ خيراً من أبي سلمة؟ وأنا أرجو أن يكون الله قد أجرني في مصيبتى»^(٢).

وأُسند ابن سعد عنها أن أبا سلمة دعا لها قبل موته: «اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى، لا يحزنها ولا يؤذيها. فلما مات أبو سلمة قلت: من هذا الذى هو خير من أبي سلمة؟ وذكر الخطبة»^(٣).

قال ابن عبد البر: إن أبا سلمة قال عند وفاته: «اللهم اخلفني في

(١) تاريخ الطبرى: ١٧٧/٢، الإصابة: ٢٤٠/٨.

(٢) صحيح مسلم، ك. الجنائز. وابن سعد بسنده إليها في (الطبقات ٨٨/٨).

(٣) الطبقات الكبرى: ٨٨/٨.

أهلى بخير» فأخلفه رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمًا للمؤمنين، وعلى بنيه: سلمة وعمر وزينب ودرّة^(١).

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة «أم سلمة» فتقدم إليها منهم «أبو بكر الصديق» خاطبها، فردّته في رفق.

وتلاه «عمر بن الخطاب» فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه. ومن بعدهما، بعث إليها النبي ﷺ يخطبها، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم، لكنها أشفقت - وقد جاوزت سن الشباب، ومعها عيال لها صغار - ألا تملأ مكانها في بيت النبي، إلى جانب عائشة وحفصة. وأرسلت إلى النبي ﷺ تعتذر، وتقول: إنها غيرى، مُسنّة... ذات عيال... فقال عليه الصلاة والسلام:

«أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله»^(٢).

وتم الزواج في شهره المبارك «من السنة الرابعة على الصحيح»^(٣). تقول «أم سلمة» وذكرت إدخالها بيت زينب بنت خزيمة بعد وفاتها: «... فإذا جرّة هناك، فاطلعت فإذا فيها شيء من شعير، وإذا رحي وبرمة وقدّرت نظرت فإذا فيها كعب من إهالة - شحم - فأخذت ذلك

(١) الاستيعاب: ترجمة أبي سلمة المخزومي، عبد الله بن عبد الأسد رضى الله عنه.

(٢) السمط الثمين: ٨٩، والمحرر ٨٥، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

(٣) الإصابة وعيون الأثر، خلافا لما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب «سنة اثنتين»

الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمته به، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه»^(١).

وتكلفت «عائشة وحفصة» ما أطاقتا من شجاعة، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من المجاملة، لكن «عائشة» لم تطق صبرا على هذا التكلف، فكشفت لحفصة عما تطوى من غيظٍ وغيرة. في (طبقات ابن سعد) عن الواقدي، حديث عائشة رضى الله عنها: «لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، حزنت حزناً شديداً لما ذكر من جالها. فتلطفت حتى رأيته فرأيت والله أضعاف ما وُصِفْتُ به، فذكرت ذلك لحفصة - وكانت يداً واحدة - فقالت: لا والله، إن هي إلا الغيرة، ما هي كما يقولون ... وذكرت كبر سنهما... فرأيتها بعد ذلك فكانت لعمري كما قالت حفصة، ولكنني كنت غيري»^(٢).

وغير مستبعد أن تكون أن «أم سلمة» قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ومن معها، أسند الواقدي من حديث الزهري عن هند بنت الحارث الفراسية قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن لعائشة مني شعبة ما نزلها مني أحد» فلما تزوج أم سلمة سئل: يا رسول الله، ما فعلت الشعبة؟ فسكت: فُعِرِفَ أن أم سلمة نزلت عنده^(٣).

ولعلها - لذلك - رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة، كي تفرغ لواجباتها الزوجية^(٤).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٩٢/٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٩٤/٨، والإصابة من طريقه.

(٣) طبقات ابن سعد ٩٤/٨٠، والإصابة من طريقه.

(٤) السيرة ١٧١/٢، والسمط ٩٠، والإصابة.

وفي الصحيحين من حديث أم سلمة رضى الله عنها، قالت: ^(١) قلت: يا رسول الله، هل لى من أجر فى بنى أبى سلمة أن أنفق عليهم؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنى. قال: «نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم».

وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: دخل على يومًا رسول الله ﷺ فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: «يا حميراء، كنت عند أم سلمة» فقلت: أما تشبع من أم سلمة؟ فتبسم ^(٢).

وبدا واضحًا أن «أم سلمة» تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على «عائشة» أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب.

وكذلك أبت على «عمر» رضى الله عنها أن يتكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن المصطفى ﷺ.

فى (الصحيحين) من حديث عبدالله بن عباس رضى الله عنها، عن عمر رضى الله عنه، قال: «والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا فى أمر أتأمره إذ قالت امرأتى: لو صنعت كذا وكذا؟ فقلت لها: مالك ولما ههنا، فيم تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى: عجا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع وإن أبنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟». فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها:

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان: ٢٣٤/١ ح (٥٨٥).

(٢) الطبقات الكبرى: ٨٠/٨.

«يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلتُ: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ. يا بنية، لا يغرّنك هذه التي أعجبها حسنُها وحُبُّ رسول الله ﷺ إياها - يريد عائشة: قال: ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة، لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت أم سلمة:

«عجبا لك يا ابن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟»

قال عمر: «فأخذتني، والله، أخذاً كسرّنتي به عن بعض ما كنت أجِدُ، فخرجت من عندها» الحديث، بطوله^(١).

وما قالت كلمتها هذه إلا وهي مدلة بمكانها عند النبي ﷺ وفي بيته، فقد كان ﷺ يعدها من أهله: حدثوا أنه كان يوماً عندها وابنتها زينب هناك فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم، فضمهما إليه، ثم قال: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد). فبكت «أم سلمة» فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها في حنو: ما يبكيك؟... أجابت: يا رسول الله خصصتهم، وتركنتي وابنتي. قال: إنك وابنتك من أهل البيت^(٢).

وقد شبت زينب في رعاية النبي ﷺ، فكانت من أفقه نساء أهل زمانها، ويروى أنها «دخلت على النبي ﷺ وهو يغتسل فنضح في وجهها،

(١) متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه في الإيلاء وَمَنْ تظاهرها عليه ﷺ من نسائه. (اللوْلُو ٢/ ٨٣٠ حديث ٩٤٤).

(٢) السط الثمين: ٢٠.

فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت^(١).
 وبلغ من إعزازه ﷺ ربيبه «سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد» أن
 زوجه «أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب» عمه الشهيد رضى الله عنه.
 «ويقول أهل العلم بالنسب، إن سلمة هو الذى عقد للنبي ﷺ، على
 أمه أم سلمة. فلما زوجه أمامة بنت حمزة بن عبدالمطلب أقبل ﷺ على
 أصحابه فقال: ترون كافأته؟^(٢)».

وكذلك شب أخوه عمر وأخته دُرّة، في كفالة النبي ﷺ ورعايته،
 فكانا مع سلمة وزينب، من ربائيه وأهل بيته رضوان الله عليهم.

(١) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر في ترجمة «زينب» بالاستيعاب والإصابة.
 (٢) أخرجه ابن عبد البر في ترجمة «سلمة» بالاستيعاب. وانظر في طبقات الصحابة:
 عمر بن أبي سلمة، ودرة بنت أبي سلمة، ربيبي النبي ﷺ.

وحي... ومشورة

كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في بيت «عائشة» فتباهى بذلك ضرائرها، حتى جاءت «أم سلمة بنت زاد الركب» فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى، في سورة التوبة:

﴿وآخِرُونَ اعترفوا بذنوبهم خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا، عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ - ١٠٢.

وفي سبب نزول الآية يروون أن النبي ﷺ، لما غزا بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار، قذف الله في قلوبهم الرعب فبعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة ابن عبد المنذر الأنصاري» ليستشروه في أمرهم. فأرسله إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم.

وسأله: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟
فأجاب: «نعم، إنه الذبح». وأشار بيده إلى حلقه.
فما زالت قدماه من مكانها حتى عرف أنه خان الله ورسوله.
وانطلق على وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال:
لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت.
وعاهد الله على: «أن لا أطأ بني قريظة أبدا، ولا آوى في بلد
خنت الله ورسوله فيه أبدا».

قال ابن هشام:

«... أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع...»

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: «أما أنه لو جاءني لاستغفرتُ له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم روى ابن إسحاق بسنده، أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أم سلمة، فقالت، وقد سمعته يضحك، قلت:

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟

قال: «تیبَ على أبي لبابة».

قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

فقال: «بلى، إن شئت»

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

فثار الناس ليطلقوه، فأبى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده.

فلما مر رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه^(١).

(١) السيرة ٣/٣٤٦ - والنقل منها - وتاريخ الطبرى، السنة الخامسة من الهجرة ٥٤/٣، مع ترجمة أبي لبابة بن عبد المنذر في الكنى من الاستيعاب. ومن الإصابة.

وفى تفسير البخارى لسورة التوبة من حديث كعب بن مالك الأنصارى - أحد الثلاثة الذين خُلِّفُوا وتيب عليهم، رضى الله عنهم - قال: فأنزل الله من توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معنية فى أمرى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سلمة، تيب على كعب» قلت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ الحديث بطوله^(١).

فى (الصحيحين) من فضائلها رضى الله عنها، حديث أسامة بن زيد، رضى الله عنها «أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يحدث ثم قام...» الحديث، بطوله^(٢).



فى العام السادس للهجرة، صحبت «أم سلمة» النبى ﷺ فى رحلته إلى «مكة» معتمرا، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش «محمدا» وأتباعه عن دخول البلد الحرام، وتم عهد الحديبية.

وكان «لأم سلمة» رضى الله عنها يومئذ دور جليل مذكور فى تاريخ الإسلام.

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين عرفوا شروط العهد، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون. ويكفى أن نذكر من ذلك أنه لما التأم الأمر بالاتفاق على شروط الصلح، ولم يبق إلا

(١) صحيح البخارى: ك التفسير، سورة التوبة. مع (فتح البارى ٢٣٨/٨).

(٢) متفق عليه من حديث أسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان: من فضائل أم سلمة رضى

الله عنها: ح ١٥٩٤).

كتابته والإشهاد عليه، جاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى». قال: فعَلَامَ نُعْطَى الدِّينَةَ في ديننا؟ أُنْزِجَ وَلَمَّا يَحْكَمْ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فقال: «ابْنَ الْخَطَابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يَضِيعَ اللهُ أَبَدًا» فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا. فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ، على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يارسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم»^(١).

في حديث معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور ابن مخزومة ومروان بن الحكم، رضى الله عنهم، في قضية الحديدية: أنه: (لما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على زوجه «أم سلمة» فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بَدَنَتِكَ وتدعو حالكك فيحلقك. فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك: نحرَ بَدَنَتَهُ ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًا)^(٢).

(١) متفق عليه من حديث أبي وائل الكوفي عن سهل بن حنيف رضى الله عنه. والنقل من (اللوئ والمرجان، باب صلح الحديدية ح: ١١٦٨).

ورواه ابن إسحاق من حديث الزهري، بإسناده، في السيرة (٣/٣٣١) بتقديم وتأخير. واليعمرى في عيون الأثر (٢/١١٩) من طريق ابن إسحاق.

(٢) تاريخ الطبرى، حوادث السنة السادسة (٨٠/٣).

ورواه السهيلي بلفظ 'مقارب': «من غير طريق ابن إسحاق، في الصحيح»^(١).

قال الحافظ ابن حجر في ترجمتها بالإصابة: «وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب. وإشارتها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يوم الحديبية، تدل على وفور عقلها وصواب رأيها».

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم، فأدركوا أى صلح خطير عقد النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلقد دخل في دين الله بعد الحديبية، مثل من كان قبل ذلك وأكثر.

فكان عمر رضى الله عنه يقول: «ما زلتُ أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق، مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا»^(٢).



وكذلك صحبت «أم سلمة» النبي ﷺ في غزوة خيبر، وفي فتح مكة، وفي حصاره الطائف، وغزو هوزان وثقيف، ثم في حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة.

ولا أعلم أنها ظهرت السيدة عائشة على نساء النبي ﷺ، إلا ما كان من غيرتها من «مارية القبطية» حين حملت من سيد البشر،

(١) الروض الأنف، الحديبية: ٣٧/٤.

(٢) ابن إسحاق عن الزهري، في أمر الهدنة بالسيرة (٣/٣٣١).

ولم تحمل منه أم سلمة وهى التى ولدت لابن عمته البنين والبنات.
 فلما لطف الله بها، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبى ﷺ
 إياهن، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدى. إلى أن مرض عليه الصلاة
 والسلام، واستبطأ يوم عائشة، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين؛
 عن طيب خاطر، بأن يُمرض حيث أحبّ، فى بيت عائشة.

* * *

الله مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ

ثم حاولت من بعده، ﷺ، أن تتجنب الخوض في الحياة العامة، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فأزرت أمير المؤمنين الإمام علياً، ابن عم النبي صلى الله عليه وعلى آله، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين. رضى الله عنهم.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنها كرهت أن تبلى وهي أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «علياً» كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة:

«يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله عز وجل، وأنت لا تقبله مني، لخرجتُ معك. وهذا ابني عمر، والله هو أعز علي من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك»^(١).

ثم مضت إلى «عائشة» فقالت لها:
- أي خروج هذا الذي تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة!..

لكن «عائشة» مضت في طريقها...
وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وأُمته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيت، على الساحة المشنومة.

(١) شهد عمر بن أبي سلمة رضى الله عنها يوم الجمل مع الإمام على، كرم الله وجهه واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة).

«توفيت رضى الله عنها بعد ما جاءها نعى الإمام الحسين بن على رضى الله عنها» على ما صح عند الحافظ ابن حجر، وحكاها فى ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبى بكر بن أبى خيثمة وابن حبان. وحكاها القاضى عياض عن ابن أبى خيثمة وابن عبد البر. وهو أيضاً ما أثبتته ابن حبيب. خلافاً لقول الواقدى بوفاها سنة تسع وخمسين^(١) ورده الحافظ ابن حجر، فى الإصابة.

وصلى عليها «أبو هريرة» رضى الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع، أم سلمة بنت زاد الركب، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.



حديثها عن النبى ﷺ فى الكتب الستة. وفيها كذلك ما روى ابنها عمر وبنتها زينب، ربيبا النبى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم^(٢).

كما روى عنها مكاتبتها نبهان، وأخوها عامر بن أبى أمية المخزومى، وابن أخيهام مصعب بن عبد الله بن أبى أمية... وخيرة أم الحسن البصرى، وسليمان بن يسار، وأسامة بن زيد، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وأبو عثمان النهدى وحמיד الطويل، وعروة ابن الزبير، وكريب مولى عبدالله بن عباس، فى كثرة من التابعين..



(١) طبقات ابن سعد: ٩٦/٨ ومعه الإصابة، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٥٦) : هند بنت أبى أمية المخزومية) وصحيح مسلم هامش (٤/٢٢٠٨) مقابلاً على الاستيعاب ٤/١٩٢٨.
(٢) تراجم: هند بنت أبى أمية، وعمر وسلمة ابنا أبى سلمة، وزينب بنت أبى سلمة، رضى الله عنهم فى الإصابة. وطبقات ابن سعد.

(٧)

زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ
أَكْرَمُهُنَّ وَلِيًّا وَسَفِيرًا

قال تعالى :

فَلَمَّا قَصَصْنَا عَلَيْهَا وَطَرَّكَزَ وَجَعَتْ كِهَالِ الْكَفَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَكُوا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

(سورة الأحزاب: ٣٧)

«ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من
زينب، وأتقى الله وأصدق حديثا وأوصل
للرحم وأعظم صدقة، وأشدَّ ابتذالا لنفسها
فى العمل الذى يُتصدَّق به ويُتقَرَّب به
إلى الله عز وجل»

السيدة عائشة أم المؤمنين

(صحيح مسلم: ك الفضائل)

شقيقة ومولى

حين دخلت «أم سلمة» بيت النبي ﷺ وتحدثت «عائشة» إلى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس، لفتتها «حفصة» إلى أنها على جمالها كبيرة السن، ثم نصحت لها أن تستبقى غيرتها لمن هي أولى.

وكانما كانت «حفصة» تنطق بظهر الغيب، فما مضى على زواج النبي ﷺ من «أم سلمة» غير عام أو بعض عام، حتى دخلت بيت النبي ﷺ من هي أولى بغيرة عائشة:

«زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر الأسدية» الشابة الشريفة الحسنة، من بني أسد بن خزيمه المضرى، وحفيدة عبد المطلب ابن هاشم، أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة النبي عليه الصلاة والسلام.^(١)

ولو كانت «زينب» قد جاءت معترضة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبي ﷺ فحسب، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من في بيته من أزواج، فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى، في القرآن الكريم؟

(١) ترجمتها في: طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب. ومعها والمحرر لابن حبيب: ٨٥، والسيرة الهشامية ٣٩٨/٤، والسمط: ١٠٧، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع: نسب قريش ١٩، وجمهرة الأنساب ١٨٠.

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها المدينة المنورة مثل «زينب بنت جحش»، ذلك لما سبق هذا الزواج، وأحاط به، من ظروف خاصة، وما أثاره من شبهة حسمها الوحي.

ولبيان هذا لابد من استطراد يسير، نرجع به إلى ما قبل المبعث، حين رجع «حكيم بن -حزام بن خويلد الأسدي» من تجارة له، ومعه رقيق، فيهم غلام في الثامنة يدعى زيدا.

وما كان «زيد» عبداً، بل هو «زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبي» من كلب بن وبرة القضاعي القحطاني، من بني زيد اللات، خرجت به أمه «سعدى بنت ثعلبة» لتزيه أهلها بني معن بن طيئ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر، فباعوه بسوق من أسواق العرب، وكان حكيم ابن حزام بن خويلد الأسدي هو الذي اشتراه.

وجاءت «خديجة» - وهي يومئذ زوج سيدنا محمد بن عبدالله - تزور ابن أخيها، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان، فأخذت «زيداً» ورآه سيدنا «محمد» فاستوهبه منها فوهبته له راضية^(١). وكان أبوه «حارثة بن شراحيل» قد جزع عليه أشد الجزع، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة، فانطلق مع أخيه «كعب» حتى وقفا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي حيث وجداه في البيت العتيق.

(١) هذه رواية السيرة: ٢٦٤/١ وتاريخ الطبري ٢/٢١٥ وترجمة زيد في الاستيعاب (٥٤٤/٢) وطبقات ابن سعد (٤٠/٣) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث. وقريب منه ما في السمط الثمين (١٨٠).

فقالا له: «يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العاني وتطعمون الجائع، وقد جئتكم في ابننا، فتحسن إلينا في فدائه؟»

قال: «أو غير ذلك؟»

قالا: «ما هو؟».

أجاب: «أدعوه وأخيرّه، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً».

قالا: «قد زدّت على النصفة».

ودُعي زيد، فعرف أباه وعمه، وخيرّه سيدنا محمد: إن شاء ذهب معها، وإذا أحب أقام معه.

فاختار سيده!

وتوسل إليه أبوه:

«يا زيد أنتختار العبودية على أهلك وأمك، وبلدك وقومك؟»

فتماسك «زيد» ليجيب:

«إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا، وما أنا بالذي أفارقه أبدا».

فعند ذلك أخذ محمد بيده، وقام به إلى الملاء من قريش فأشهدهم أن

زيدا ابنه وارثا وموروثا.

ودُعي الغلام «زيد بن محمد».

وُبعث محمد صلى الله عليه وسلم فكان زيد أحد الأربعة السابقين إلى

الإسلام.

ولما آخى النبي ﷺ بين أصحابه المهاجرين، كان زيد وحمزة ابن عبدالمطلب الهاشمي، أخوين.

فلما بلغ «زيد» سن الزواج، اختار له النبي عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب: «زينب بنت جحش».

وكرهت زينب، وكره أخوها «عبدالله بن جحش» أن تزف الشريفة المضرية إلى مولى، رغم أصله العربي الصريح أباً وأماً. حتى نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(١).

وتزوجت «زينب» زيدا... طاعةً لأمر الله ورسوله، وإلزاماً بالمبدأ الإسلامي: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

زواجُ بامرِ الوحى

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، فما نسيت «زينب» قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا، دخل بيت آها رقيقاً وقاسى «زيد» من صدها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ غير مرة، ما يجد من معاملة زينب، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال، حتى أذن الله تعالى ففارقها زيد، وتزوجها ابن خالها، بامر الوحى.

وفى طلاقها ثم زواجها، مرويات شتى ما كنت لأتشاغل بها، لولا أنها عُزِيَتْ بأخرة. إلى من خاضوا فيها من «أعداء الإسلام، من المبشرين والمستشرقين» وكأن لا أثر لها فى المراجع الإسلامية المبكرة.

* * *

فى رواية لابن سعد والطبرى من طريق الواقدى، أن النبى ﷺ جاء بيت زيد يطلبه فلم يجده، وقامت إليه زينب فُضلاً فأعرض ﷺ عنها، فقالت: ليس هو ها هنا يارسول الله فادخل بأبى أنت وأمى. وأبى رسول الله أن يدخل. وإنما عجلت إليه زينب لما قيل لها: رسول الله ﷺ على الباب، فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه، إلا أنه ربما أعلن: «سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب» وجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله. فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت عليه فأبى.. فخرج زيد حتى أتى رسول الله

ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك جئت منزلي، فهلاً دخلت بأبي أنت وأمي..؟ ثم سأله، كما كان يسأله من قبل: فأفارقها؟ فقال ﷺ: «أمسك عليك زوجك» فما استطاع زيد مع زينب صبرا، فكان يأتي رسول الله ﷺ فيخبره، فيقول له: «أمسك عليك زوجك»^(١)..

وفي رواية أخرى للطبري، من طريق يونس بن عبد الأعلى، الصدفي المصري، أن رسول الله ﷺ «خرج يوما يريد زيدا، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر وزينب في حجرتها، فانصرف ﷺ، لم يدخل. فجاءه زيد فقال: يا رسول الله، أريد أن أفارق صاحبتى، فقال: «مالك؟ أراك منها شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما رابى منها شيء ولا رأيت إلا خيرا. فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله» فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾^(٢)

وتأول «الزمخشري» الآية من سورة الأحزاب، فنحا بها منحى صريح الاعتزال، على ما يأتى في موضعه من هذا العرض..

هل يجدى أن نطرح هذه المرويات جملة ونرمى بها المستشرقين والمبشرين، ونحملها على زور مفترياتهم، مع وجودها مدونة في كتب إسلامية مبكرة، كطبقات ابن سعد، ومحبر ابن حبيب، وتاريخ الطبري،

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٨) والنقل منه، وتاريخ الطبري، السنة السادسة (٤٢/٣) ط.

أولى، حسينية) من طريق الواقدي، ونحوه في المحبر (٨٥) والسمط ١٠٨.

(٢) تاريخ الطبري ٤٣/٣. والنقل منه، والطبراني في زوائده.

ومعجم الطبراني، وكشاف الزمخشري؟

أغلب الظن أن «الدكتور محمد حسين هيكل» لم يقف على هذه المرويات، فذهب إلى أنها - يقينا - من مفتريات المستشرقين والمبشرين: «الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله، وأنه يكفي لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هي ابنة عمه رسول الله عليه الصلاة والسلام.. و.. وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا، قبل أن تتزوج زيدا.. وأنه الذى خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص: من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسننها وقال: سبحان الله مقلب القلوب. أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها فى قميصها وكأنها مدام ريكاميه. فانقلب فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة..»^(١)

وعند الدكتور هيكل أن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتّم بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبدية، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه..^(٢)

وأضاف الدكتور هيكل:

(١) حياة محمد: ٢٩١؛ وقوله «زينب بنت مخزوم» فيه وهم، فهى بنت خزيمه الهلالية ولم

تدرك زواج بنت جحش، بل توفيت قبله بزمان.

(٢) حياة محمد صلى الله عليه وسلم: ٢٩٢-٢٩٤.

«أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التي يكررها المستشرقون والمبشرون.

«ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية، هي التي تملئ على هؤلاء جميعاً ما يكتبون».

ولا حيلة لنا في عزو هذه المرويات إلى المبشرين، مع وجودها في كتب لقدامى المؤرخين والمصنفين والمفسرين، مطبوعة متداولة بين الدارسين والقراء. لهذا قدَّرتُ أن فحص هذه المرويات ونقدها، إسناداً وممتناً، أولى من إنكارها وحملها على شهوة التبشير ومفتريات الاستشراق.

رواية الواقدي، في طبقات ابن سعد، عن الستر الذي حركته الريح، قال فيها الحافظ ابن حجر: «وسنده ضعيف»^(١).

وهي عند الطبري من طريق الواقدي، ومعها الرواية الأخرى من طريق ابن عبد الأعلى الصدفي، وكلتاها من مراسيل التابعين. وقد اقتصر الطبري على ذكرهما في (تاريخه) ولم يشر إليهما في (تفسيره) لسورة الأحزاب.

وما رواه الطبراني، خرجه نور الدين الهيثمي من زوائده قال: «بسند مرسل، وفي بعض رجاله ضعف»^(٢).

وتأويلُ الزمخشري مشوب بمنحى المعتزلة، قال: «فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. فإن

(١) فتح الباري: ١٣/٣٢١ ط. أولى

(٢) مجمع الزوائد: ٩/٢٤٧ ط. أولى

قلت: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به؟.. قلت: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله... لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره^(١) وذلك، منه، صريح اعتزال.

قال القاضي عياض: «... فإن قلت: فما معنى قوله تعالى في قصة زيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.. الآية، فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ من هذا الظاهر، وأن يأمر زيداً بإمساکها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي ابن حسين، - الإمام زين العابدين رضى الله عنه - أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكها إليه زيد قال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سیتزوجها، مما الله مبيده ومُظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها. وروى نحوه عمرو بن فائد - الأسوارى - عن الزهري.. ويوضح هذا أن الله لم يُبَيِّد من أمره معها غير زواجه لها، فدل أنه الذى أخفاه ﷺ.. ولو كان على ما روى في حديث قتادة من وقوعها في قلب النبي ﷺ عندما أعجبته، ومحبه طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا، ولكان هذا نفس

الحسد المذموم الذى لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف سيد الأنبياء؟ قال القشيري: وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وفضله. وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوجها لزيد؟ وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سنته، كما قال عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾. وقال: ﴿لَكَيْلًا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾. وقد قيل: كان أمره لزيد بإمسакها قمعاً للشهوة ورداً للنفس عن هواها. وهذا إذا جوزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها. ومثل هذا لا نُكره فيه، لما طُبِعَ عليه ابن آدم من استحسانه الحسن، ونظرة الفجأة معفو عنها، ثم قمع نفسه عنها وأمر زيداً بإمسākها، وإنما تُتكرَّر تلك الزيادات التى فى القصة، والأولى ما ذكرناه عن على بن حسين، وحكاة السمرقندى، وهو قول عطاء، واستحسنه القاضى القشيري، وعليه عوّل أبو بكر ابن فورك وقال إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير، قال: والنبي ﷺ منزّه عن النفاق وإظهار خلاف ما فى نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾. قال: وليس معنى الخشية هنا الخوف، وإنما معناه الاستحياء، أى يستحيى منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس، كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبيهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعتبه الله على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله الله له، كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه فى (سورة التحريم) بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾

الآية. كذلك قوله له ههنا: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. وقد روى عن الحسن وعائشة: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً، لكنتم هذه الآية، لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه»^(١).

بعد فحص النظار لما مرَّ من مرويات، ونقد القاضى عياض - عالم المغرب المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ - أنقل من مصادرنا الموثقة، مما صح عند حفاظنا الأئمة فى هذه القضية:

أخرج الإمام البخارى فى كتاب التوحيد من (صحيحه) حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه، قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ يقول: «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكنتم هذا الحديث.

وفى تفسير آية الأحزاب: ﴿... وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ أسند البخارى عن أنس، رضى الله عنه: «أنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة» رضى الله عنها.

وقد استوفى الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع من كتاب التفسير بصحيح البخارى، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته، ثم قال: «ووردت آثار أخرى أخرجه ابن أبى حاتم والطبرى، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها. والذى أوردته عنها هو المعتمد. والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته. والذى كان يحمله على إخفاء ذلك، خشية قول الناس:

(١) القاضى عياض: إلفا: (١٦٦/٢ - ١٨٦) ط. الحلبي بالقاهرة ١٣٦٩ - ١٩٥٠ م.

تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبوهم، وإنما وقع الخطأ في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم^(١).

ثم لا أزيد عليه سوى ذكر آية الأحزاب في تمام سياقها:

وَأَذْنُفُولٍ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ
اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخُفِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ
فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَّ زَوَاجُكُمْ هَلْ يَبْعَثُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِي أَنْفُسِهِمْ أَذْعِبُوا عَنْهَا إِذَا قُضِيَ إِلَيْهَا مِنْهَا وَطَرَّ كَرُّهَا ۖ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ
صدق الله العظيم

(١) فتح الباري ٣٧١/٨، وقابل على: الاستيعاب ١٨٤٩/٤، وتفسير الطبري ٧٥/٢١.

والإصابة ٢٩٢/٨ وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

وَلِيْمَةٌ.. وَحِجَاب

في صحيح الحديث عن ثابت البناني عن أنس رضى الله عنه، قال: «لما انقضت عِدَّةُ زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزید: «فادْكُرْها عليَّ» فانطلق زید حتى أتاها وهى تُحَمِّرُ عَجِينَهَا، قال: فلما رأيتها عَظُمْتُ في صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها. فوليتها ظهري ونكصت على عَقِبِي فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدِها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال أنس: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته، فجعل يتبع حُجْرَ نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ قال: فما أدري؟ أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا، أو أخبرني؟ فانطلق حتى دخل البيت فذهبتُ أدخل معه فَأَلْقَى السَّترَ بيني وبينه، ونزل الحجاب».

زاد محمد بن رافع، من شيوخ مسلم، رواية الحديث: آية الحجاب: ﴿لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(١).

(١) صحيح مسلم: ك النكاح، باب زواج زينب رضى الله عنها: (ح ١٤٢٨/٨٩) مع حديث أنس رضى الله عنه في المتفق عليه. في (الذو: ك النكاح، ح ٩٣) وابن سعد في ترجمتها بالطبقات من عدة طرق، وانظر ترجمتها في الاستيعاب والإصابة.

وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه، قال: «ما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّلَمَ على امرأة من نسائه ما أوَّلَمَ على زينب، فإنه ذبح شاة»^(١).

وفي (الصحيحين) عن أنس رضى الله عنه «أن أمه - أم سليم الأنصارية - عمدت إلى تمر وسمن وأقِط فاتخذت طعاما في بُرْمَةٍ، فأرسلت بها معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هديةً له يوم عرسه بزينب. فانطلق بها أنس فأمره صلى الله عليه وسلم أن يضعها، وأن يدعو رجالا سباهم، قال: «وَادْعُ لِي مِنْ لَقِيتَ». قال أنس: ففعلت الذي أمرني، فرجعت فإذا البيت غاصُّ بأهله، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يديه على تلك الحَيَسَةِ - الطعام - وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم: «اذكروا اسم الله وليأكل كل رجل مما يليه» حتى تصدعوا جميعا - أى تفرقوا - فخرج منهم من خرج وبقي نفر يتحدثون... الحديث بطوله، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع وأرخى الستر سمعه أنس يتلو:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢) الآية.

(١) مسلم، ك النكاح (ج، ٩).

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه. واللفظ من (اللوؤز والمرجان: ك النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإتيان وليمة العرس) والآية من سورة الأحزاب: ٥٣.

ومن يومئذ، فُرض الحجابُ على نساء النبي، وعلى المؤمنات جميعاً، رمزَ تصوُّنٍ وعزّةٍ، وسمّةٍ كرامةٍ وترفعٍ عن الابتذال..

كانت العروس يوم تزوجها النبي ﷺ في السنة الخامسة على أرجح الأقوال، بنت خمسٍ وثلاثين سنة^(١).

وكان اسمها «بَرّة» فسماها ﷺ زينب، وفي (الصحيحين) حديث زينب بنت أبي سلمة، ربيبة النبي ﷺ، رضى الله عنها:

«كان اسمى بَرّة، فسماى رسول الله ﷺ زينب. ودخلتُ عليه زينب بنت جحش واسمها بَرّة، فسماها زينب»^(٢).

(١) الإصابة، عن الواقدي: ٩٣/٨، وعبون الأثر ٣٠٤/٢.

(٢) متفق عليه واللفظ من صحيح مسلم ١٦٨٧/٣: ح (٢١٤٢) مع (اللؤلؤ والمرجان ٤٧/٣).

أَكْرَمُهُنَّ وَلِيًّا وَسَفِيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته، التي زوجها إياها الله تعالى.

وباتت السيدة «عائشة» ليلتها فريسة الغيرة، قد أخذها، فيما قالت: «ما قُرْب وما بُعد، لما تعرف من جمال زينب، ولما هي حَرِيَّةٌ أن تفخر من صنع الله لها».

وكذلك غارت نساء النبي رضى الله عنهن، وضغن بهذه العروس الجديدة التي تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ، وبأن الله هو الذى زوجها.

وفى حديث أنس، رضى الله عنه، بكتاب التوحيد من صحيح البخارى، قال: «.. فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات»^(١).

وفى رواية قالت: «أنا أكرمُكن وليا، وأكرمُكن سفيرا: زوجكن أهلكن، وزوجنى الله من فوق سبع سموات!»^(٢).

وعدّ ابن حبيب زواجهما، فى مناقب قومها بنى أسد^(٣).

(١) معه (فتح البارى: ٣٢/١٣).

(٢) طبقات ابن سعد: ٧٣/٨، المحبر: ٨٦، الاستيعاب، الإصابة، عيون الأثر.

(٣) المحبر: ٨٦.

وإذا كانت «أم سلمة» قد سرها أن ترى أثر دخولها على «عائشة»، الزوج المفضلة، فلا ريب في أن زينب قد أرضاها أن تحب فيكون لها ما تفخر به عليهما.

ولم تكتف عائشة غيرتها من زينب، كما لم تكتفها من أم سلمة، بل اعترفت بأنهما: «كانتا أحب نسائه إليه - فيما أحسب - بعدى». ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها في الخطوة فتقول: «لم تكن واحدة من نساء النبي تناصيني غير زينب»^(١).

أى تنازعنى وتبارينى، من قولك: ناصيت فلانا إذا أخذت بناصيته ونازعته.

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميله ﷺ إلى زينب «وإطالته المكث لديها» ثم تأمرها مع حفصة وسودة، أيتهن دخل عليها صلى الله عليه وسلم انصرافه من عند زينب، فلتقل له: «إنى أجد ريح مغافير»^(٢).

وكان يحدث أحيانا أن تحتد بينها المناقسة في حضرته صلى الله عليه وسلم، فيدعها وشأنها لعل في هذا راحة لها وتنفيسا عن مشاعرهما. وقد استطاعت «عائشة» مرة أن تغلب «زينب» فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال: «إنها ابنة أبى بكر»^(٣).

(١) السيرة ٣/٣١١، الاستيعاب، الإصابة.

(٢) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللولؤ ٢/١٢٧) وقد مر، مع: السيدة عائشة، والسيدة حفصة رضى الله عنها.

(٣) أخرجه البخارى في الناقب، ومسلم في باب فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها

وحدث مرة أخرى، أن أفلت لسان «عائشة» بكلمة غضب لها المصطفى، فقد تلقى هدية وهو في بيتها، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها. لكن زينب ردت ما جاءها، فلم تملك عائشة أن قالت كلمة غضب لها النبي عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما كان من موقف زينب من «صفية بنت حُيَيٍّ، أم المؤمنين» وقول زينب لرسول الله ﷺ: «أنا أعطى تلك اليهودية؟!». ويأتي حديثها في المبحث الخاص بصفية، بمشيئة الله تعالى.



وأطولهنَّ يدًا

على أن هذه الخصومة المعلنة بين الزوجتين الأوليين، لم تمنع حفيده عبد المطلب من الدفاع عن «عائشة» في محنة الإفك، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت في رواية ابن إسحاق من طريق الزهري:

«وكان كبير ذلك - الإفك - عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش. وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها.. فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرا، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها، فشقيت بذلك»^(١).

وفي رواية عن عائشة رضی الله عنها، قالت: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال لزينب: «ماذا علمتِ أو رأيت؟» قالت: يارسول الله، أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمتُ إلا خيرا. قالت عائشة: «وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»^(٢).

(١) السيرة (٣/٣١٢) مع حديث الإفك، رواية الزهري، في (الصحيحين).

(٢) متفق عليه. والنقل من (اللؤلؤ: ك التوبة) ح ١٧٦٣.

أجل عصمها الله تعالى دينها، وقد كانت «زينب» صالحة تقية، صادقة التدين.

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت:

«ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل»^(١).

وأُسند أبو عمر في (الاستيعاب) عن عبد الله بن شداد الليثي أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «إن زينب بنت جحش أواهة» فقال رجل: يا رسول الله: ما الأواه؟.. قال: الخاشع المتضرع. ثم تلا ﷺ: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٍ مُنِيبٌ﴾^(٢).

وكانت كذلك كريمة خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين، عيال الله الذي أكرمها وأعزها، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها.



وألغى موت محمد ﷺ، ما بين «زينب» وبين ضرائرها من التنافس على زوجهن الحبيب المصطفى ﷺ، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجاً حبيبة، وللمؤمنين أمّاً رحيمة، ولربها عابدة قانتة.

ذكرتها «أم سلمة» فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين «عائشة» ثم قالت:

(١) صحيح مسلم، ح: (٢٤٥٢)، والاستيعاب، والسمط ١١٠، والإصابة.

(٢) الاستيعاب، والآية من سورة هود: ٧٥.

« كانت زينب لرسول ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوامة صوامة، صناعاً تدبغ وتخزن، وتتصدق بذلك كله على المساكين »^(١).
وسُمت « عائشة » تقول حين بلغها نعى « زينب » :
« لقد ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل ».

في (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها، أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ : أينا أسرع بك لحوقاً؟ قال: أطولكن يدا فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدا. فعلمنا بعد أنما كانت - زينب - طولُ يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به، وكانت تحب الصدقة.

وفي رواية عن عائشة، قالت:

« قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يدا... فكننا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ، نغد أيدينا في الجدار نتناول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طوال اليد بالصدقة، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخزن، وتتصدق في سبيل الله »^(٢).

وفي الصحيح أن « عمر بن الخطاب - أمير المؤمنين - أرسل إليها عطاءها اثني عشر ألفاً، فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل، فإنه فتنة »^(٣).

(١) الإصابة.

(٢) طبقات ابن سعد: ١٠٨/٨. والاستيعاب: ١٨٥١/٤ والإصابة ٩٣/ عن الواقدي. السمت الثمين: ص ١١٠.

(٣) في ترجمتها: الاستيعاب والإصابة. وأخرجه مسلم بلفظ مقارب، في كتاب فضائل الصحابة: ح (٢٤٥٢) ومعه طبقات ابن سعد: ١١٠/٨.

ثم قسمته في أهل رَحْمِها وفي أهل الحاجة، فبلغ «عمر» ذلك، فوقف ببابها وأرسل إليها بالسلام وقال:

«بلغني ما فرقت، فأرسل ألف درهم تستبقينها».

وأرسل الألف، فتصدقت بها جميعاً، لم تُبْقِ منها درهما.

وحين حضرتها الوفاة - سنة عشرين - ^(١) قالت:

«إني قد أعددت كفى، وإن عمر أمير المؤمنين، سيبعث إليَّ بكفى، فتصدقوا بأحدهما. وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى - إزارى - فافعلوا» ^(٢).

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وشيع أهل المدينة إلى البقيع، أم المؤمنين زينب بنت جحش، أول من مات من نساء النبي ﷺ، وأسرعهن لحاقاً به. وازدحموا على نعشها. روى ابن سعد من طريق الواقدي بسنده عن عبد الله بن أبي سليط الحجازي التابعي، قال: «رأيت أبا أحمد بن جحش يحمل سرير زينب بنت جحش - أخته - وهو مكفوف وهو يبكي، فأسمعُ عمرَ يقول: يا أبا أحمد: تنحَّ عن السرير، لا يُعَنَّكَ الناس - وازدحموا على سريرها - فقال أبو أحمد: أعمر، هذه التي نلنا بها كل خير، وإن هذا يبرد حرّاً ما أجد. فقال عمر: الزم، الزم» ^(٣).

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: «رأيت عمر بن الخطاب سنة

(١) في رواية أنها توفيت سنة إحدى وعشرين، عام فتح العرب للإسكندرية (الاستيعاب ١٨٥٢/٤ والإصابة ٩٤/٨ وعيون الأثر ٣٠٥/٢).

(٢) الإصابة عن الواقدي، والسمط الثمين ١١١، مع طبقات ابن سعد: ١٠٩/٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ١١٣/٨.

عشرين في يوم صائف، ورأيت ثوبا مُدَّ على قبرها، وعمر على شفير القبر، معه أبو أحمد ذاهب البصر، وعمر بن الخطاب قائم على رجله، والأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، قيام على أرجلهم»^(١).

«وعن الشعبي أنه صلى مع عمر على زينب، وكانت أول نساء النبي ﷺ موتاً - بعده - وكان عمر يعجبه أن يدخلها في قبرها، فأرسل إلى أزواج النبي ﷺ: من يدخلها في قبرها؟ فقلن: من كان يراها في حياتها فلیدخلها في قبرها»^(٢).

* * *

«لأم المؤمنين زينب رضى الله عنها عند الستة أحد عشر حديثاً. روى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، ومولاه مدكور، وأم المؤمنين أم حبيبة، والريبة زينب بنت أبي سلمة... وعدد من كبار التابعين والتابعيات»^(٣).

(١) طبقات ابن سعد: ١١٣/٨.

(٢) «ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح»: مجمع الزوائد للنور الهيثمي: ٢٤٨/٩.

(٣) تهذيب التهذيب النساء ٤٢٠/١٢ (٢٨٠١).

(٨)
جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ
سيدة بنى المصطلق *

«.. وما من امرأة أعظم على قومها بركة
منها: أُعْتِقَ بزواجها من رسول ﷺ، أهلُ
مائة بيتٍ من بنى المصطلق.»
(السيرة، والاستيعاب والإصابة)

* من كُتِّبَ السيرة من يقدمون في ترتيب أمهات المؤمنين، «أم حبيبة بنت أبي سفيان» على
جويرية، باعتبار خطبة الأولى وهي في الحبشة. كما في السيرة الهشامية والمحبر.
ومنهم - كالحافظ ابن سيد الناس في عيون الأثر - من قدم جويرية على أم حبيبة، باعتبار
بناء الرسول ﷺ بأم حبيبة، حين عادت من الحبشة بعد خيبر.

الأسيرة الحسنة

شُغِلَ المصطفى ﷺ، بعد زواجه بزینب بنت جحش، بأحداث هامة كبار، ملأت النصف الثاني للعام الخامس الهجري، ففي شهر شوال وأوائل ذي القعدة^(١) كانت وقعة «الخنديق» التي لقي فيها النبي ﷺ والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام في دار هجرته، لقيهم النبي ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذي حفره حول المدينة، وقد أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

ونقض اليهود عهد المودعة، وجهروا بالخيانة والغدر... وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق وقال قائلون: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر. وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعاً في الغنيمة، فلما ظنوا أنه مهزوم، كروا راجعين إلى ديارهم.

(١) في السيرة (٢٢٤/٣) أن غزوة الخندق كانت في شوال سنة خمس، ومثله في تاريخ الطبري (٤٣/٣) قابل على طبقات ابن سعد (٤٧/٢) وعيون الأثر ٦٨/٢.
(٢) السيرة ٢٣٠/٣ - وطبقات ابن سعد: ٤٧/٢ وتاريخ الطبري: ٤٦/٣.

وكان حصاراً مرهقاً استغرق سبعة وعشرين يوماً، ثم دارت الدائرة على المشركين، وتم النصر لرسول الله ﷺ، والذين معه^(١).

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدهم الموقعة، وأووا إلى بيوتهم في الصبح يلتمسون راحة، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبي ﷺ يؤذن في الناس:

«من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة». واستأنفوا القتال، وحاصروا يهود بني قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم في شهر ذي القعدة وصدر ذي الحجة^(٢).

بعدها كانت غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد. وعاد ﷺ إلى المدينة فما كاد يقيم بها شهراً وبعض شهر، حتى بلغه أن بني المصطلق - وهم حي من خزاعة - يجمعون الجموع لقتاله، بقيادة زعيمهم «الحارث بن أبي ضرار بن حبيب المصطلقى الخزاعى»^(٣).

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه «عائشة بنت أبي بكر» حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فكان قتال انتهى بهزيمة بني المصطلق.

وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن «برة بنت الحارث ابن أبي ضرار ابن حبيب» سيد القوم وقائدهم، أو «جويرية» كما سهاها ﷺ.

وقفل راجعاً إلى المدينة.

فبينما هو جالس يوماً في حجرة عائشة، سمعت امرأة تستأذن في لقاء النبي ﷺ.

(١) تاريخ الطبرى: ٥٣/٣، والسيرة ٣٠١/٣.

(٢) تاريخ الطبرى، حوادث السنة السادسة للهجرة، وانظر جمهرة أنساب العرب: ٢٢٨.

وقامت «عائشة» إلى الباب لترى من تلك، فإذا شابة حلوة، مفرطة الملاحظة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه^(١)، في نحو العشرين من عمرها، ترتجف قلقا وذعرا، وقد زادها انفعالها حيوية وجمالا.

في رواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين، وذكرت الأسيرة الحسنة، قالت: «.. ف وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى، فكاتبها على نفسها... وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فبينما النبي ﷺ عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيته فكرهت دخولها على النبي ﷺ، وعرفت أنه سيرى منها الذي رأيت».

ودخلت الشابة المليحة فقالت في ضراعة تمازجها عزة: «يارسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ف وقعت في السهم لثابت بن قيس... فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على أمري»^(٢).

ورق قلبه الكريم للبرية الخزاعية، بنت سيد بني المصطلق، في موقفها ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق، تلوذ بمروءته ونجدته.

* * *

وتكلم المصطفى ﷺ فقال: «فهل لك في خير من ذلك؟»
سألت في لهفة وحيرة: «وما هو يا رسول الله؟»

(١) ابن إسحاق في السيرة: ٣/٣٠٧، وتاريخ الطبري: ٣/٦٦ والاستيعاب ٤/١٨٠٤ والوسط الثمين: ١١٧. ومناقبها في (مجمع الزوائد: ٩/٢٥٠)

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١١٦) والسيرة، والاستيعاب والإصابة من طريق الواقدي.

قال: «أقضى عنك كتابتك، وأتزوجك!»

فتألق وجهها الجميل بفرحة، وقالت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان: «نعم يا رسول الله!»
قال عليه الصلاة والسلام: «قد فعلت!»^(١).

وفى رواية بالاستيعاب والإصابة، «أن النبي ﷺ سَبَى جويرية - ويعنى أن يتزوجها - فجاءه أبوها فقال: يا محمد، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها، فإن ابنتى لا يُسَبَى مثلها، فخلّ سبيلها. قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيت إن خيرتها، أليس قد أحسنت؟» قال: بلى. فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت: اخترت الله ورسوله.

وقيل إن أباه كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به فى فداء ابنته، فلما سأله رسول الله ﷺ عنها، قال: «أشهد أنك رسول الله حقاً» فخطب إليه ابنته، فزوجه إياها، وكان صداقها أربعمئة درهم^(٢)

(١) السيرة ٣/٣٠٧ - والنقل منها - وطبقات ابن سعد ٨/١١٨ - والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبرى ٣/٦٦ وترجمتها فى الاستيعاب ٤/١٨٠، والإصابة ٨/٤٣، وعيون الأثر ٢/٢.
(٢) السيرة: ٣/٣٠٨، والسمط ١١٧، وعيون الأثر ٢/٣٠٥.

بَرَكَةُ الْعُرُوسِ

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبي ضرار، فتداعوا لتكريم السيدة التي أعزها نبينهم بالزواج.

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون: «أصهار رسول الله».

ودخلت العروس بيت النبي، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها: أُعْتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ، أهلُ مائة بيتٍ من بيوت بني المصطلق^(١).

«وسأها ﷺ جويرية، كراهة أن يقال: خرج من عند برة»^(٢). وظلت «جويرية» ما عاشت، تبارك تلك اللحظة السعيدة التي لقيته فيها، فنجت من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر.

وكذلك ظلت «عائشة» تذكر تلك اللحظة، لكن في مرارة وألم، فتقول في صراحة مؤثرة:

(١) السيرة ٣/٣٠٧، وتاريخ الطبري ٣/٦٦ - والاستيعاب، والإصابة، والسمط الثمين ١١٦. ومناقبها، رضى الله عنها، في (مجمع الزوائد ٩/٢٥٠)
(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس: ٣/١٦٧٨ ح (٢١٤٠) وابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق، وابن حجر في الإصابة، من طريق مسلم.

«... وكانت امرأة حلوة ملاحه، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فو الله ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيته...»^(١).

وهل من حرج على الرسول ﷺ في أن ينظر إلى جويرية؟ قال «السهيلي» في شرحه للسيرة الهشامية: «وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة... وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها. وقال للمغيرة، بن شعبة، حين شاوره في نكاح امرأة: «لو نظرت إليها، فإن ذلك أخرى أن يؤدم بينكما.» وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة الأنصاري حين أراد نكاح «بشينة بنت الضحاك»^(٢).

وقد كان ما توقعت «عائشة» وخافت: نظر ﷺ إلى الأسيرة الحسناء، وأصبحت «جويرية بنت الحارث» شريكة لعائشة في بيت النبي ﷺ. كما أصبحت وقد أسلمت وحسن إسلامها، أمًا للمؤمنين.

على أن «عائشة» ما لبثت أن شُغِلَتْ عن «جويرية» وغير جويرية، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بني المصطلق، من قِبلٍ وقال. حتى إذا انجلت غمة الإفك، وعادت عائشة إلى بيت النبي معتزة بما أنزل الله في براءتها من آيات، واجهتها «جويرية» بملاحتها الأخاذة، فما

(١) أسنده ابن إسحاق في السيرة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة، عن ابن إسحاق.

(٢) الروض الأنف ١٩/٣.

كان من عائشة إلا أن قالت في زهو وهي تنقل بصرها بين جويرية، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وحفصة، وطيف مائل من خديجة: لم يتزوج، ﷺ، بكرا سوى.

ذلك أن «جويرية» كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقى، ابن عمِّ لها، قتل يوم المُرَيْسِيع^(١).

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجرى «سنة ست وخمسين على الأرجح، وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة، وقد بلغت سبعين سنة. وقيل: توفيت سنة خمسين، وهى بنت خمس وستين سنة»^(٢).

رضى الله عن جويرية، أم المؤمنين التى «لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها».



(١) فى المحبر ٨٩، وطبقات ابن سعد ٨/١١٦، والاستيعاب: ٤/١٨٠٤ والإصابة ٨/٤٣ والسمط الثمين ص ١١٦، قابل على تاريخ الطبرى (٣/١٧٧)

(٢) الاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر ٢/٣٠٥ وتهذيب التهذيب ١٢/٤٠٧، والسمط

(٩)

صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ عَقِيلَةُ بَنِي النُّضِيرِ

«وأمر ﷺ بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه».

صحيح مسلم
والسيرة النبوية

خَرِبَتْ خَيْبَرَ

انتهت السنة السادسة للهجرة، بعد أن أحدثت في بيت النبي ضجة ما مثلها ضجة: تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث، وابتلى بمحنة الإفك في أعز أزواجه عليه ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة. وفيها أيضاً، تم صلح الحديبية.

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللثام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر.

وخرج عليه الصلاة والسلام في النصف الثاني من المحرم^(١) إلى «خير» معقل العدو، فما أشرف عليها حتى قال:

«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين».

وخربت خيبر: فُتِحَتْ حصونها حصناً حصناً، وقُتِلَ رجالها، وسُبِيَ نساؤها، وفيهن عقيلة بنى النضير «صفية بنت حُيى بن أخطب» التي ينتهى نسبها إلى هارون أخى موسى عليهما السلام، وأمها برة بنت شموال - أو: سَمَوَل - القرظية.

ولم تكن صفية قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها.

(١) في السيرة ٣/ ٣٤٢، وتاريخ الطبرى، وعيون الأثر ٢/ ١٣٠، وطبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت في جمادى الأولى.

لكنها، على صغر السن، تزوجت مرتين:

تزوجت أولاً من فارس قومها وشاعرهم: «سَلَام بن مِشْكَم القُرْظِي»
ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري» صاحب
حصن «القموص» أعز حصن في خير^(١).

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد جهاد مرير، وجيء بكنانة حياً،
وكان عنده كنز بنى النضير، فسأله ﷺ عنه: فجحد أن يكون يعرف
مكانه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:
«أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَكَ، أَأَقْتُلُكَ؟»

قال: نعم..

فلما اكتشف مخبأ الكنز عنده، دفعه ﷺ إلى «محمد بن مَسْلَمَة
الأنصاري البدرى» فضرب عنقه بأخيه «محمود بن مسلمة» الذي قتله
اليهود في أول المعركة عند حصار حصن ناعم: أَلْقَوْا عليه رَحِيًّا
فقتلته^(٢).

وسيقت نساء القموص سبايا، وفي مقدمتهن «صفية» امرأة كنانة،
وابنة عم لها، يقودهما «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام.

(١) من السيرة ٣/٣٥١ وتاريخ الطبري ٣/٩٥، ١٧٨؛ والمحبر ٩٠، وعيون الأثر ٣٠٧/٢. وفي طبقات ابن سعد ٢/٧٧، والاستيعاب ٤/١٨٧١، والإصابة ٨/١٢٦: «كنانة ابن أبي الحقيق» ولعله من رفع النسب إلى جدّه.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٩٥، والسيرة: ٣/٣٥١ - وانظر طبقات ابن سعد ٢/٨١. وترجمة محمود بن مسلمة الأنصاري وأخيه محمد بن مسلمة رضى الله عنها في القسم الأول من حرف الميم في الإصابة.

ومر بهما «بلال» على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود، فهتت «صفية»
أن تصيح، لكن الصيحة احتبست في حلقها لا تنطلق.

وأما ابنة عمها فأعولت صارخة، وصكَّت وجهها، وحشت التراب على
رأسها..

وجيء بهما إلى رسول الله ﷺ.

«صفية» في حزنها الصامت وقهرها المكبوت، تحاول أن تتناسك في
ترفع وكبرياء، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر، وإن بدا أنها تلوذ
أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة في قومها.

والأخرى، شعناء الشعر معفرة بالتراب، ممزقة الثياب، لا تكف عن
عويل ونواح.

قال صلى الله عليه وسلم وهو يشيح بوجهه عنها:

«اغربوا عنى هذه الشيطانة»^(١).

ثم دنا من صفية، وقد بدا عليها أنها راغبة في أكثر من حماية النبي
الفارس، فألقى عليها نظرة رحمة وهو يقول لبلال:

«أنزعت يا بلال منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلى
رجالهما؟»^(٢).

(١) تاريخ الطبرى: ٩٤/٣ - والسيرة ٣٥٠/٣، والإصابة ١٢٦/٨.

(٢) تاريخ الطبرى: ٩٤/٣ - والسيرة ٣٥١/٣، ٢٥٦/٤، والإصابة ١٢٦/٨ وانظر
طبقات ابن سعد: ٨١/٢.

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فكان ذلك إعلاناً بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

وكان المسلمون قد قالوا: ما ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد، فلما حجبها عرفوا أنه ﷺ قد تزوجها.

وفي حديث عن «أنس رضي الله عنه» أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حبي، قال لها: «هل لك في؟ قالت: يا رسول الله.. قد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟» فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وكان عتقها صداقها^(١).
«ودفعها ﷺ إلى أم سليم تهيئها له وتعتد عندها»^(٢).

(١) طبقات ابن سعد: ٨٤/٢، والاستيعاب ١٨٧٢/٤، والإصابة ١٢٦/٨، والسمط الثمين: ١٢٠، وعيون الأثر ٣٠٧/٢ مع (الصحيحين). كتاب النكاح، باب فضية إعتاقه أمة ثم يتزوجها/ اللؤلؤ والمرجان، ح ٩٠٠.

(٢) صحيح مسلم، ك النكاح: ح (١٣٦٥/٨٦).

رُؤْيَا الْعُرُوسِ وَذِكْرِيَاتِهَا

وانتظر ﷺ بخير حتى هدأت المناحة، وظن أن الروح قد ذهب من «صفية» أو كاد، فحملها وراه وانطلق بها إلى المنزل في أطراف خيبر - على بعد ستة أميال منها - فمال يريد أن يعرس بها، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل^(١).

فوجدھا ﷺ في نفسه، وشق عليه تمنعها ورفضها، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره في الطريق إلى المدينة، فلما كان بالصهباء - بعيدا عن خيبر - نزل هناك يستريح، فبدا له أن «صفية» متهيئة للعرس «جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل»^(٢).

وظهرت «صفية» عروسا مجلوة، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية: إنها لم تر بين النساء أضوأ منها^(٣).

وراء جلوة الفرح المرتقب، غابت آثار الحزن والألم، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التي ألفت بأهلها صرعى مجندين، وأخرجتها من حصن «القموص» ذليلة أسيرة، تساق بين السبايا!

وثمت أقيمت وليمة العرس: «أصبح النبي ﷺ فقال: من كان عنده شيء فليجيئ به» وبسط نِطْعًا، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن.. فكانت وليمة رسول الله ﷺ^(٤).

(١) السمت الثمين ١٢٠، والإصابة ١٢٦/٨.

(٢) من حديث أنس رضى الله عنه، المتفق عليه (اللؤلؤ والمرجان، ك النكاح: ح ٩٠٠).

(٣) الإصابة: ١٢٦/٨ مع طبقات ابن سعد (١٢١/٨).

(٤) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان، ك النكاح: ح ٩٠٠).

دخل، صلى الله عليه وسلم، على صفية وفي نفسه شيء من موقفها الأول. وأقبلت عليه فقالت: إنها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع، رأت في المنام قمراً وقع في حجرها. فلما صحت من نومها قصت رؤياها على كنانة فقال غاضباً:

«ما هذا إلا أنك تُتمنين ملك الحجاز محمداً»^(١) ولطم وجهها لطمه ما يزال أثر منها فيه.

ونظر، صلى الله عليه وسلم، إلى أثر اخضرارٍ في عينها، وقد سرّه ما سمع من حديثها. وهمّ بأن يقبل عليها لكنه أمسك وسأل:

«ما حملك على الامتناع أولاً؟» أو قال: «ما حملك على إباتك في المنزل الأول؟»

أجابت العروس من فورها: «خشيتُ عليك قرب اليهود». فزال ما كان يجد في نفسه من جفوة.

وتسترجع العروس ذكرياتٍ لها عن إرهاب قومها اليهود بنبي منتظر يعرفونه من أسفارهم، ثم غيظهم يوم استقبلت يثرب النبي المهاجر الذي طالما بشرت يهود بقرب مبعثه، تستغل البشرى لمآرب مادية، ولتفاخر بها على العرب الأميين.

تقول صفية بنت حيى بن أخطب:

«كنت أحبّ ولدِ أبي إليه وإلى عمى أبي ياسر، لم ألقها قط مع

(١) السيرة ٣٥٠/٣ وتاريخ الطبري ٩٤/٣، ولفظ «ملك يثرب»، في حديث ابن عمر، رضى الله عنها، عند الطبراني «ورجاله رجال الصحيح» (مجمع الزوائد ٢٥١/٩) وفي رواية بالإصابة لابن إسحاق، رواية يونس بن بكير، أنها قصت رؤياها على أمها. وفي عيون الأثر أنها قصتها على أبيها.

ولدهما إلا أخذاني دونه. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، غدا عليه أبي وعمي مُغْلَسَيْن فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. فأتيا كَالَيْنِ ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم. وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟

«قال: نعم والله. قال عمي: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ أجاب: عداوته والله ما بقيت»^(١).

وهناك خارج القبة التي دخل فيها المصطفى على صفة، بات رجل من الأنصار، هو «أبو أيوب خالد بن زيد» يقظان ساهراً، متوشحاً سيفه، يطيف بالقبة على غير علم من المصطفى، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله:

«مالك يا أبا أيوب؟»

أجاب: «يا رسول الله، خفتُ عليك من هذه المرأة، قد قتلت أباهما وزوجها وقومها، وكانت حديثه عهد بكفرٍ، فخفتُها عليك».

فيقال: إن الرسول دعا له قائلاً:

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

أو قال: «رحمك الله يا أبا أيوب» مرتين^(٢).

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد، تلك الفعلة الآثمة لامرأة من يهود

(١) السيرة ١٦٥/٢ ووفاء الوفا ٢٧٠/١.

(٢) السيرة ٢٥٤/٣ - وطبقات ابن سعد: ٨٤/٢.

خير، هي «زينب بنت الحارث» امرأة سَلَام بن مِشْكَم، أحد زعمائهم .
القواد.

دخلت «زينب» على النبي ﷺ وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر، فأهدت إليه شاة مسمومة، وكانت قد سألت بعض أصحابه: أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله؟ قيل لها: الذراع. فأكثر السم فى الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة.

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه «بشر بن البراء»، فتناول ﷺ الذراع، وأعطى صاحبه «ابن البراء» قطعة أخرى أكلها غير مستريب. لكن النبي ﷺ لم يسغ الذراع، بل لفظها وهو يقول: «إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم».

ودعا بامرأة سلام، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة. ولما سأها ﷺ عما حملها على ذلك ردَّت:

«بلغت من قومي ما لا يخفى عليك، فقلت: إن كان نبياً فسيُخبر، وإن كان ملكاً استرحت منه». فتجاوز عنها.

ومات «بشر بن البراء» من أكلته التى أكل...^(١)

فعل «أبا أيوب الأنصارى» ذكر هذه الفعلة اليهودية، حين بات

(١) السيرة ٣/٣٥٢، وتاريخ الطبرى ٣/٩٥.

وأخرجه مسلم، بلفظ مقارب، من حديث أنس رضى الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التى أهديت إلى الرسول ﷺ يوم فتح خير، عن أبى هريرة... وفيه أن الذين سموها وأهدوها، جماعة من اليهود (٨٤/٢).

ساهرًا حول القبة التي دخل فيها ﷺ على «صفية» عقيقة بنى النضير.

وبلغ الركب المدينة. وفي حديث أنس رضى الله عنه قال: «فعثرت الناقة العضباء، وَنَدَرْتُ (صفية) فقام ﷺ فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أَبْعَدَ اللَّهُ الْيَهُودِيَّةَ»^(١).

وآثر المصطفى ﷺ ألا يدخل بالعروس على نسائه، «وقد خرجت جوارهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها»^(٢)، فأنزلها في بيت لصاحبه «حارثة بن النعمان الأنصارى».

وتسامعت نساء الأنصار بها، فجئن ينظرن إلى جملها، ولمح ﷺ زوجته «عائشة» تخرج متنقبة على حذر، فتتبع خطواتها من بعيد، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان.

وانتظر حتى خرجت، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكًا:
«كيف رأيت يا شقيراء؟»

فأجفلت عائشة، وقد هاجت غيرتها، ثم هزت كتفها وهى تجيب:
«رأيت يهودية!» زادت في رواية: «بين يهوديات».
ورد عليها النبي ﷺ:

«لا تقولى ذلك، فإنها أسلمت وحسن إسلامها»^(٣).

(١-٢) صحيح مسلم ١٠٤٨/٢: ح (١٣٦٥).

(٣) ابن سعد في طبقاته، وابن حجر - من طريقه - في الإصابة، والسمط ٨٠.

ولم تعلق «عائشة» بكلمة، بل سارت إلى البيت حيث كانت حفصة في انتظارها، مشوقة إلى أن تسمع رأيها في العروس.

ولم تنكر «عائشة» أنها جميلة حقاً، ولعلها زادت فحدثت «حفصة» عما كان من تتبّع المصطفى لها وحواره معها.

وأسند الواقدي عن أم سنان الأسلمية، قالت: لما نزلنا المدينة - بعد خيبر - لم ندخل منازلنا حتى دخلنا على صفية منزلها. وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلن عليها متنكرات، فرأيت أربعاً من أزواج النبي ﷺ منقبات: زينب بنت جحش، وحفصة، وعائشة، وجويرية، فأسمع زينب تقول لجويرية: ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله ﷺ. فقالت جويرية: كلا، إنها من نساء قلما يحظين عند الأزواج»^(١).

* * *

زوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى

ثم انتقلت «صفية» إلى دور النبي، فواجهتها هناك مشكلة محيرة: كانت عائشة ومعها حفصة وسودة في جانب، والزوجات الأخريات في جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهن.

وكان على «صفية» أن تختار، وإنه لموقف دقيق صعب، فما كانت في ذكائها بالتى تناصب «الزوج الأثيرة» أو «أم أبيها» عداً أو شبه عداً! ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرهما الموروث، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعاً!

وكان مظهر تقربها إلى ابنتي أبي بكر وعمر، إظهار استعدادها للانضمام إليهما... وأما «الزهراء» فأهدتها «صفية بنت حبي» حلية لها من ذهب، رمزاً لمودتها وإعلاناً لمسالمتها^(١).

ولعل «صفية» أرادت أن تحتفى بهذا الموقف اللبق، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودى، وتذكير بما بين قومها والإسلام من عداً مستحكم مرير.

وما كان لها، في الحق، أن تخشى أذى من «الزهراء» فإنها - رضى الله عنها - كانت أحرص الناس على سلام، وأبر بأبيها من أن تشارك في هذا الضجيج النسوى، اللهم إلا أن تدفع إلى شيء من ذلك دفعاً، كالذى أشرنا إليه من سفارتها لأزواج النبي عند أبيها ﷺ في أمر السيدة عائشة.

(١) الإصابة ج ٨/١٢٧.

ولعل صفية كانت في مأمن كذلك، من جهة أم سلمة رضى الله عنها. أسند الواقدي عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، قال: «كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ومعه في ذلك السفر صفية بنت حبيى وأم سلمة، فأقبل رسول الله ﷺ إلى هودج صفية وهو يظن أنه هودج أم سلمة - وكان ذلك اليوم يومها - فجعل يتحدث مع صفية فغارت أم سلمة، وعلم رسول الله ﷺ بعد أنها صفية، فجاء إلى أم سلمة فقالت: تتحدث مع ابنة اليهودى في يومى؟ قالت: ثم ندمت على تلك المقالة، فكانت تستغفر منها - قالت: يا رسول الله، استغفر لى فإنما حملنى على ذلك الغيرة»^(١).

وإنما الخوف كل الخوف من «عائشة» في غيرتها الجامحة، وضيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه!

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف، تقربها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهراً وتلميحاً بالدم اليهودى الذى يجرى في عروقها؟ وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن، في ظلّ أكرم زوج! والذى آلم «صفية» أن عائشة وحفصة - اللتين انضمت إليهما - كانتا تشاركان الأخريات في النيل منها، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات، وهى الأجنبية الدخيلة.



وبلغ «صفية» كلاماً عن حفصة وعائشة، فلما حدثت به النبى عليه الصلاة والسلام وهى تبكى، قال:

(١) طبقات ابن سعد: ٩٥/٨.

«ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى؟»^(١).

ونزل كلام النبي عليه الصلاة والسلام على «صفية» برّداً وسلاماً، وكان لها منه حمى وملاذ.

كان النبي ﷺ، يحسُّ غربة «صفية» في دوره بين نسائه، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة.

حدثوا أنه كان في سفر ومعه «صفية» و«زينب بنت جحش» فاعتل بعير «صفية» وفي إبل زينب فضل، فقال لها:

«إن بعير صفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً؟»

ردت في ترفع وازدراء:

«أنا أعطى تلك اليهودية؟»

فولّى عنها مغضباً، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها، أو قيل «فهجرها لذلك، ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر، ثم أتاها بعد، وعاد إلى ما كان عليه معها»^(٢).

ولم تحرم «صفية» هذه الحماية حتى آخر أيامه ﷺ. رُوي أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ في مرضه الأخير، فقالت صفية: إني والله يانبي الله، لوددت أن الذي بك بي. فما كان من أزواجه إلا أن غمزن يبصرهن، فما راعهن إلا أن قال ﷺ: «مَضْمُنْ!» تساءلن في دهشة: من أي شيء؟

(١) الإصابة ١٢٧/٨ - والنقل منها - والاستيعاب: ١٨٧٢/٤ والسمط ١٢١.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة، بسنده إليها. وابن حجر في ترجمة صفية بالإصابة، من طريق ابن سعد.

قال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»^(١).

ولحق المصطفى بالرفيق الأعلى، عز وجل. وافتقدت «صفية» تلك الحماية الكريمة، فما نسى الناس لها أنها من سلالة يهود، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التي لم يكف لسدّها حسنُ إسلام صفية، وزواجها رضى الله عنها من النبي ﷺ.

حدثوا أن جارية لها أتت «أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» فقالت: «يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السب وتصل اليهود».

فبعث «عمر» إلى صفية يسألها عن ذلك فقالت:

«أما السب فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحماً فأنا أصلها»

ثم اتشت إلى جاريته فسألتها عما حملها على مثل ذلك. قالت الجارية: «الشیطان!».

وردت «صفية»:

«اذهبى فأنت حرة»^(٢).

واندفعت «صفية» راضية أو كارهة، تشارك في المعركة السياسية التي بدأت في عهد «عثمان» رضى الله عنه، وكان موقفها شبيهاً بموقفها بين

(١) ابن سعد فى الطبقات، بسند عن زيد بن أسلم. وابن حجر فى الإصابة، من طريقه.

(٢) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ١٨٧٢/٤، وابن حجر فى الإصابة ١٢٧/٨

من طريقه والمحسب الطبرى فى السمط ١١٢.

عائشة والزهراء، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التي كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى، ومكانة فى الدولة الإسلامية رفيعة، لم تأل «صفية» جهداً فى الولاء لأمر المؤمنين «عثمان» قبل مقتله. حدث مولى لصفية يدعى كنانة - وقيل هو ابن أخيها - قال:

«قدمت صفية، فى حجابها، على بغلة لترد عن عثمان، فلقينا الأستر - هو النخعى - فضرب وجه البغلة، وهو لا يعرف راكبتها، فقالت لى صفية: رُدْنى لا تفضحنى!

ثم وضعت معبراً بين منزلها ومنزل عثمان، فكانت تنقل إليه الطعام والماء، وهو فى محنة الحصار»^(١).

* * *

وماتت «صفية» حوالى سنة خمسين، والأمر مستقر لمعاوية...

ودفنت بالبقيع، مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج فى الكتب الستة، ومن الذين رووا عنها: ابن أخيها ومولاها كنانة، ومولاها الآخر يزيد بن متعب، والإمام زين العابدين على بن الحسين، ومسلم بن صفوان، فى عدد من حفاظ التابعين رضى الله عنها وعنهم.

* * *

(١) ابن سعد فى الطبقات. حكاه ابن حجر فى آخر ترجمتها بالإصابة.

(١٠)

أُمّ حَبِيبَةَ

بنت أبي سُفْيَان

«ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته «أم حبيبة»... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه»
(ابن إسحاق: السيرة النبوية)

عودة المهاجرة

رجع النبي ﷺ إلى مدينته، وقد تمَّ له النصر في «خير»، وتزوج عقيلة بنى النضير، وسيقت بين يديه غنائم اليهود.

وتأهبت «المدينة» للقائه، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه:

فهنالك في «المدينة» وهو ﷺ غائب في خير، كان مهاجرة الحبشة قد جاءوا في صحبة «عمرو بن أمية الضمري» الذي بعثه النبي ﷺ إلى «النجاشي» ليعود بمن بقى في بلاده من المهاجرين الأولين^(١).

وحملهم «عمرو» في سفينتين، فبلغ بهم «المدينة» حيث الأهل والأنصار، وموقعة «خير» إذ ذاك في ذروة احتدامها.

وأعقب وصولهم إعلان فتح «خير» والنصر المبين على يهودها، وخرج أهل «المدينة» لاستقبال العسكر المنتصر، فضاقت بهم أرجاء الوادى، وقد بُحَّت أصواتهم من هتاف ودعاء.

وأهلَّ عليهم ﷺ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من «مكة» أيام الاضطهاد والعذاب، أولئك الذين كان آخر عهده بهم، يوم تسللوا من «مكة» أيام المحنة، خارجين من ديارهم وأموالهم في سبيل الله، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الإسلام غريباً مهاجراً فتكون له الجنة.

(١) السيرة: ٣/٤، والطبرى: ٨٩/٣.

وكانوا رضى الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة، حيث النعيم الذى وعد به المؤمنون، وها هم أولاء يلتقون فى أرض الوطن، يوم الاحتفال بفتح خير، وقد صارت للإسلام الكلمة العليا فى جزيرة العرب!

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته، فالتزم ابن عمه «جعفر ابن أبى طالب» معانقاً، وقبل عينيه وهو يقول فى غبطة:

«ما أدرى بأيهما أنا أسرُّ: بفتح خير، أم بقدم جعفر؟»^(١).

والتفت ﷺ بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين وقد كانوا فيما أحصى «ابن إسحاق» ستة عشر رجلاً^(٢).

من المهاجرات العائدات، كانت «أم حبيبة، بنت أبى سفيان بن حرب» تنتظر النبى ﷺ، ليحملها إلى بيته!

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين، مذ كانت فى مهاجرها بالحبشة. فلنمض مع الأحداث، راجعين بها إلى بدايتها هنالك...

محنة في الغربية

كانت «رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية» زعيم مكة وقائد المشركين، زوجة لابن عمّة المصطفى ؛ «عبيد الله بن جحش الأسدي، أخى السيدة زينب أم المؤمنين» وقد أسلم عبيد الله وأسلمت معه «رملة»، وأبوها «أبو سفيان» على الكفر. وكذلك أمها: صفية بنت أبي العاص الأموية.

وخشيت أذى أبيها، فهاجرت بدينها مع زوجها في الهجرة الثانية إلى الحبشة وهي مثقلة بحملها، وتركّت أباه «بمكة» وقد جن غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل. وهناك في الحبشة، وضعت «رملة» بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» التي كُتبت بها فصارت تدعى «أم حبيبة».

وإذ هي في غربتها تكتم حنينها إلى الديار، وتحاول أن تجد في زوجها عوضاً عما فارقت من أهل وعشيرة، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة، فقد روعت في الحلم برؤية «عبيد الله» بأسوأ صورة، فأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذي من أجله هاجر إلى الحبشة، ودخل «النصرانية» دين الأحباش...

وحاول أن يردّها عن دين الإسلام فصبرت على دينها^(١).

(١) ابن سعد في الطبقات، ٩٦/٨ والمحرر: ٨٨، والاستيعاب ١٨٤٤، وابن حجر في ترجمتها بالإصابة ٨٤/٨، عنه. والسمط ٩٦.

وكادت « بنت أبي سفيان » تهلك غماً وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله إذن، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب، وقسوة التنكر للآباء والأجداد، وهذا هو يرتد عن الإسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك، ورضيت أن تذيق أباه عذاب القهر والغم ؟

لقد كان أكرم لعبيد الله، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعاً عن عبادة وجدوا آباءهم عليها من قديم الحقب. فأما أن يكفر بهذا كله، ويرضى بالإسلام ديناً ليحىء إلى الحبشة فيكفر بالدين، ويستبدل به ديناً غريباً لقوم غرباء، فى يسرٍ ودون تخرج، كما يبذل ثوباً بثوب، فأية مهانة وأى عارا !

وهذه الابنة الحبيبة، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب الصائب المرتد؟ ما جريرتها لتخرج إلى الحياة فى أرض غريبة، وقد انبت ما بين أبويها وتمزق شمل ذويها، وتوزعت أهلها ملئ شتى : فأبوها نصرانى، وأمها مسلفة، وجدها مشرك عدو الإسلام !

واعترلت « رملة » الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجاً، ولطفلتها والدًا..

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » مضاعفة الغربة، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها، ولا سبيل لها إلى أرض الحجاز، وهناك أبوها يعلن حرباً شعواء على النبى الذى صدقته وآمنت به صلى الله عليه وسلم.

وأين تراها تقيم في «مكة» لو عادت؟

أفى بيت أبويها المشركين، وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟
أم في دار «آل جحش» رهط زوجها، وقد أقفرت بهجرة أهلها
وصارت منهم خلاء؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبى ربيعة، والعباس بن
عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة، مروا بدار بنى جحش وهم
مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تحفق أبوابها يباباً ليس فيها
ساكن، ثم تنفس الصعداء وقال:

وكلُّ دارٍ وإن طالَّت سلامتها يوماً ستدرکہا النوباءُ والحُوبُ!
أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل: «وما تبكى عليه؟»... ثم قال:

«هذا عمل ابن أخى، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا»^(١).

كلا، لا سبيل لرملة إلى «مكة» والمركة على أشدها بين أبيها والنبي
ﷺ، ودار بنى جحش خلاء تحفق أبوابها يباباً!

* * *

رسالة من الحجاز

ومرت فترة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة، فما شعرت ذات يوم إلا وطرقات تلح على بابها الموصد، مستأذنة الجارية من جوارى النجاشى...

وفتحت «أم حبيبة» الباب، فدخلت الجارية وأدت إليها رسالة النجاشى:

«إن الملك يقول لك: وكُلِّ مَنْ يزوجك من نبي العرب، فقد أرسل إليه ليخطبك له».

واستعادت «رملة» حديث الجارية مرتين وثلاثاً، حتى إذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما إليها حلاوة البشرى . ثم أرسلت إلى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» - كبير المهاجرين من قومها بنى أمية - فوكلته فى زواجها^(١).

وفى المساء، دعا النجاشى إليه مَنْ بالحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب، ابن عم النبى ﷺ، وخالد بن سعيد، وكيل رملة..

وتكلم النجاشى وترجم المترجم:

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضى الله عنها. وحكاه ابن حجر فى ترجمة «رملة» بالإصابة ٨٤/٨. وفى رواية للزبير بن بكار: زوجها إياه عثمان بن عفان. وهى رواية مرجوحة (الاستيعاب).

«إن محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان،
فمن أولاكم بها؟»

أجاب القوم: «خالد بن سعيد، قد وكتته».

فاتجه إليه النجاشى قائلاً:

«فزوجها من نبيكم، وقد أصدقته عنها أربعائة دينار» - وقيل:
أربعة آلاف - فقام خالد وقال:

«وقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة»...
وقبض الصداق.

وأولم لهم النجاشى وليمة الزواج قائلاً: «اجلسوا، فإن سنة الأنبياء
إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على الزوج»^(١).

ثم أتوا «أم حبيبة» مهنئين مباركين. «وأولم عليها عثمان بن عفان
لحمًا وثريدًا».

وباتت بنت أبى سفيان، وهى «أم المؤمنين»!

وأصبحت فجاءتها «جارية النجاشى» تحمل إليها هدايا نساء الملك
من عودٍ وعنبرٍ وطيب، فقدمت إليها «أم المؤمنين» خمسين دينارًا من
صداقها قائلة:

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ٤/١٩٣٠ والمحرر ٨٨، والإصابة ٨٤/٨. وفى رواية بها، أن
الذى زوجها: عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية. وهو خال رملة، أخو أمها «صفية بنت
أبى العاص بن أمية. ولعله الذى زفها إلى النبى ﷺ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة. والله
أعلم.

«كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شيء من المال، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا».

فأبت أن تمسّ الدنانير، وردّت السوارين وهى تقول: إن الملك أجزل لها العطاء، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئاً، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب.

وتقبلت «أم حبيبة» الهدية شاكرة، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى، فكان عليه الصلاة والسلام يرى عندها طيب الحبشة وعُودها فلا ينكره.



بين الأب والزوج

احتفلت «المدينة» بدخول بنت أبي سفيان بيت النبي ﷺ.

وأولم خالها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم، وباتت «مكة» ساهدة مؤرقة، تردد قول زعيمها أبي سفيان والد أم حبيبة، حين بلغه نبأ زواجها:
«هذا الفحل لا يُجدع أنفه!»^(١).

ولم يكن قد مضى على زواجه، ﷺ، من عقيلة بنى النضير، غير أيام معدودات!

واستقبلت نساء النبي زميلتهن «أم حبيبة» بشيء من المجاملة، ولم ترَ «عائشة» فيها أول الأمر ما يشعل غيبتها؛ إذ كانت «رملة» تدنو من عامها الأربعين، وليس لها سحر صفية، ولا ملاحه جويرية، ولا حسن أم سلمة، ولا جمال زينب...

وأبدت «عائشة» استعدادها لقبول الزوجة الجديدة في صفها، لكن «بنت أبي سفيان» أنفت أن تكون تابعة لأخرى...

وبقدر ما أنكرت «عائشة» ألا تسارع «رملة» إلى كسب رضاها كما فعلت «حفصة بنت عمر»، أنكرت «بنت أبي سفيان» على «عائشة» الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ في بيت النبي ﷺ...

(١) طبقات ابن سعد ٩٩/٨، وتاريخ الطبري ٩٠/٣، والسمط ٩٩، والاستيعاب والإصابة. ومعها نسب قريش ١٢٢.

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة، وإن بقيت «عائشة» تهاب «رملة» وتخشى وقوفها في سبيل ما تبغى من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها!

وكانت «رملة» بحيث تفعل ما تخشاه «عائشة» لولا أن ظلت تحس في أعماقها حزناً قاسياً لأن أباهما لا يزال على الوثنية الكافرة. وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة، تأكل من رجال أعزة عليها، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها، أبنائها المؤمنين رضى الله عنهم.



وبلغها يوماً أن قريشاً نقضت عهد «الحديبية» وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدر به أو ينقض له عهد، فهل تراه يغزو «مكة» ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين وفيهم أبوها، وإخوتها، وأكثر أهلها وعشيرتها؟ كذلك لاحت نذر الخطر في «مكة» فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر «محمد» الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به. لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه، فهل تراه يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ، وصار له السلطان الأكبر في بلاد العرب؟ واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة يفاوض محمداً ﷺ في تجديد الهدنة ومدّ أجلها عشر سنين، ولكن من يكون رسولهم؟ أبو سفيان بن حرب، ولا أحد سواه!

على هذا أجمعوا أمرهم، ولم يستطع «أبو سفيان» إلا أن يذعن. وأنى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يدها بالوقود من فلذات

أكباد مكة... فليَصَلَّ اليومَ حرَّها، وليمض إلى «محمد» خصمه الألد،
يسأله الموادة والمسالمة!

وخرج «أبو سفيان» من مكة مكرها يريد المدينة. فلما بلغها أشفق
من لقاء «محمد» وذكر أن له ابنة هناك في بيت خصمه، فتسلل إليها
يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت به «أم المؤمنين» يدخل بيتها، ولم تكن قد رأتها منذ هاجرت.
إلى الحبشة، فوقفت تجاهه بادية الحيرة، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا
تقول... وأدرك «أبو سفيان» ما تعانيه ابنته، فأعفاها من أن تأذن له
بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه إلا أن
وثبت «رملة» فاختطفت الفراش وطوته في إعزاز، ثم وقفت تلهث.
سألها وهو يلوذ بالصبر:

«أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش، أم رغبة بالفراش عني؟»
وجاءه ردُّها:

«هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس
عليه!»

قال والألم يفرى كبده: «لقد أصابك يا بنية بعدى شر»^(١).
وانصرف مقهوراً...

واستندت هي على جدار بيتها، عصية الدمع، معظلة الحواس.
حتى جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام فعرفت ما كان من أمر
«أبي سفيان».

(١) السيرة: ٣٨/٤، وابن سعد في الطبقات: ١٠٠/٨ والإصابة، عنه.

ذهب إلى النبي ﷺ فكلّمه في العهد فلم يجبه بشيء...^(١).

فتوسل بأبي بكر إلى الرسول لكن أبا بكر رفض..

فكلّم «عمر بن الخطاب» فرد عليه في غلظة وجفاء:

«أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم يكن إلا الذرّ لجاهدتكم

به».

ومضى أبو سفيان إلى بيت «علي بن أبي طالب» وعنده فاطمة بنت رسول الله، وولدها الحسن يدب بين يديها، فقال: «يا عليّ، إنك أمّس القوم بي رجلاً، وإني قد جئت في حاجة... فاشفع لي إلى محمد». ردّ «عليّ»:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه».

فالتفت أبو سفيان إلى السيدة فاطمة وسألها متوسلاً:

«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟»

ردّت رضى الله عنها:

«والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

(١) السيرة: ٣٨/٤، وتاريخ الطبري: ١١٢/٣ والسمط الثمين: ص ١٠٠.

(٢) تاريخ الطبري: ١١٢/٣.

وإذ سدت السبل في وجهه، التمس نصيحة «علي بن أبي طالب» فقال كرم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً، لكنك سيد بني كنانة. فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. وما أظن ذلك مغنياً، ولكني لا أجد لك غيره»^(١).

فذهب «أبو سفيان» إلى المسجد، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس، ثم أسرع إلى راحلته وانطلق بها يعدو في طريق مكة، كأنه يفر من مطارد...

* * *

سمعت «أم المؤمنين» ما جرى لأبيها، فما زادت على أن دعت لزوجها ﷺ بالنصر، وقد رآته يتخذ أهبته للمعركة الفاصلة في البلد الحرام.

ولعل نساء النبي راقبها وهى في موقفها ذاك الدقيق الحرج، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة، ومكة لاتزال في حيرة من الأمر، تستمع إلى ما كان من أمر أبي سفيان الذي رجع من وفادته خائباً على غير قرار، يقول: «جئت محمداً فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو»^(٢).

(١) السيرة: ٣٨/٤ - وتاريخ الطبرى: ١١٢/٣.

(٢) السيرة: ٣٩/٤، وتاريخ الطبرى: ١١٣/٣.

كان الموقف صعباً بالغ الصعوبة، دقيقاً أشد الدقة، فانتصار محمد ﷺ
يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها، وإن «أم المؤمنين» لتناصب قومها
العداء، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم
سيطت به؟... وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى
ينتظرهم؟! كلا، بل إن عنتهم عزيز عليها، مثلما هو عزيز على رسول الله
ﷺ.

وإذ هى فى حيرتها المضنية لاح لها شعاع من الأمل:
ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان كما أسلم عمر بن الخطاب، وأخوها
معاوية، وخالد بن الوليد، وأبو العاص بن الربيع، زوج السيدة زينب
كبرى بنات النبى ﷺ؟..

إنه لأمل واه، أقرب إلى أن يكون سراياً، ولكنها تعلقت به ليعصمها
من الحيرة والجزع فتوجهت إلى السماء، تدعو الله أن يهدى أبا سفيان
إلى الإسلام!

وأحست طمأنينة وسلاماً، فتلت ما نزل من آى الكتاب الكريم حين
تزوجها محمد رسول الله ﷺ:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ

مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)

وكان هذا غاية ما تملك «أم المؤمنين، بنت أبى سفيان» لأبيها وأهلها..
على حين بلغ الجزع برجل من الصحابة البدرين، أن بعث كتاباً مع

امرأة من «مكة» تدعى «سارة» ووعدتها مكافأة سخية إذا هي أبلغت كتابه قريشاً، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم.

وعلم النبى ﷺ بكتاب صاحبه «حاطب بن أبى بلتعة» فبعث على ابن أبى طالب والزبير بن العوام، فأدركا «سارة» وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها.

ودعا النبى إليه صاحبه، فسأله عما حمله على ذلك. قال حاطب: «يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم».

فوثب به «عمر بن الخطاب» واستأذن النبى عليه الصلاة والسلام فى أن يضرب عنقه، لكنه ﷺ حال دونه؛ إذ كان أحد أصحاب «بدر»^(١). وإنما جئت بحديث «حاطب» هنا، لنقدر صعوبة الموقف على «أم المؤمنين بنت أبى سفيان» حين رأت زوجها عليه الصلاة والسلام وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد «مكة»

وتم الفتح..

وطارت البشرى إلى «المدينة» بما أفاء الله على رسوله من نصر. ورددت دور المدينة ما كان من لقاء النبى ﷺ بأبى سفيان الذى أرسلته مكة حين رأت نيران الفسكر الغازى تتوهج قريباً منها، ليستطلع لها أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام. وعرف «العباس بن عبد المطلب» أبى سفيان فقال ينبئه بالخبر:

(١) السيرة: ٤٠/٤ - والإصابة: حاطب بن أبى بلتعة.

- ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس، وأصبح قريش إذا دخل مكة عنوة! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك^(١).

قال أبو سفيان: فما الحيلة، فذاك أبي وأمي؟
فأردفه العباس وراءه وسار به خلال المعسكر، ماراً بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم تلقى الرعب في قلوب المشركين.

فلما مرَّ بنار «عمر بن الخطاب»، عرف رضى الله عنه أبا سفيان فأسرع إلى خيمة النبي ﷺ يستأذن في ضرب عنقه. وجاء العباس على أثره فقال: إني يا رسول الله قد أجرتك.

وأمسك القوم أنفاسهم، حتى سمعوا كلمة النبي ﷺ: «أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به».
وقضى أبو سفيان ليلته مؤرقاً يترقب حكم «محمد بن عبد الله» في قريش.

فلما كان الصبح جىء بأبي سفيان إلى حضرة النبي ﷺ، وفي مجلسه كبار المهاجرين والأنصار^(٢).

وتكلم النبي عليه الصلاة والسلام قال:
«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»
قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى شيئاً بعد»

(١) ابن إسحاق السيرة: ٤٥/٤ - والنقل منها، مقابلاً على صحيح البخارى، ك المغازى، مع (فتح البارى ٤/٨) وتاريخ الطبرى: ٤٠/٣ - وطبقات ابن سعد: ٩٨/٢.

(٢) السيرة: ٤٥/٤ - وتاريخ الطبرى: ٤٠/٣.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ويحك يا أبا سفيان: ألم يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»

قال «أبو رملة»:

«بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه، فوالله إن في

النفس منها حتى الآن شيئاً!»

ولكن «أبا سفيان» ما لبث أن أعلن إسلامه..

فالتمس «العباس» من النبي ﷺ أَنْ يَكْرِمَ الرجل بشيء يتألفه به،

فأجاب النبي الكريم:

«نعم... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن،

ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»^(١).

وبعث أبو سفيان من نادى في مكة:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»

فما زالت أصداء الهتاف تُرْجَعُ في الأفق حتى بلغت سمع «أم حبيبة»

فهتفت وقد هزها الفرع:

«من دخل دار أبي فهو آمن!»

ألا ما أكرم زوجها الرسول، وما أحلمه، وما أنبله، وما أوصله!

وسجدت لله شاكرة...

(١) السيرة: ٤٦/٤ - وتاريخ الطبري: ١١٧/٣، وطبقات ابن سعد: ٩٨/٢.

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة، وحفصة، وكل نساء النبي

ﷺ...

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها «عائشة»، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وشطط..

وظلت ما عاشت، تتصدى لها كلما أسرفت في غلوائها، أو اشتطت في اعتدادها بمكانتها.

حتى إذا حان الرحيل، دعت إليها «عائشة بنت أبي بكر» فقالت لها وهي تحتضر:

«قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحليليني من ذلك؟»
أو قالت: «قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك».

فحللتها عائشة واستغفرت لها، فأضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمت:

«سررتى سرّك الله».

وفعلت مثل ذلك مع «أم سلمة بنت زاد الركب»^(١).

ثم رقدت بسلام، وأودع جثمانها ثرى البقيع الطيب، فى المدينة المنورة فى سنة أربع وأربعين على الأرجح.

(١) أسنده ابن سعد من حديث عائشة رضى الله عنها فى الطبقات ٨/١٠٠، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة، من طريق ابن سعد، والسمط: ١٠١.

لها رضى الله عنها فى الكتب الستة خمسة وستون حديثاً، روت عنها بنتها حبيبة ربيعة رسول الله ﷺ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن هشام بن المغيرة، وأبو صالح السمان، وزينب بنت أبى سلمة، ربيعة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلم^(١).



(١١)

ميمونة بنت الحارث
آخِرُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

« ذهبت والله ميمونة... أما إنها والله كانت
من أتقانا وأوصلنا للرحم »
عائشة بنت أبي بكر
(الإصابة : ٨ / ١٩٢)

الأخوات مؤمنات

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح «خير» وعودة بقية المهاجرين من الحبشة، مثل التفكير فيما نص عليه «عهد الحديبية» الذى عقد فى ذى القعدة سنة ست، من أن «يعود محمد وأصحابه إلى مكة فى العام الذى يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قرَبِها، ولا شيء غيرها»^(١).

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى «أم القرى» ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى ديارهم، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملَّئوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد.

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جُعِلَ مثابة للناس وأمناً، يأتون إليه من كل فج عميق.

فلما سبوا إليه فى العام السادس للهجرة معتمرين مسالمين وصاروا على مرحلة من «مكة»، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام، وإن قبلوا أخيراً أن يتركوا المسلمين يعودون إليه فى قابل...

ومرت الأيام بطيئة والليالى طويلات، حتى استدار العام، ونادى النبى ﷺ فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى مكة.

* * *

(١) انظر نص العهد فى المتفق عليه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه فى (اللوئق والمرجان: ك الجهاد، الحديبية).

وركب ناقته «القصواء» وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار يتلهفون شوقاً إلى أقدم بيت عبد الله فيه، وحرصاً على السعى إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم.

وترأت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة، للقرية المباركة: مهد النبي الهاشمي ومنزل الوحي.

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم بالوعد الصادق، وأمامهم «عبد الله ابن رواحة الأنصاري» رضى الله عنه، أخذاً بخطام «القصواء» ينشد حادياً: ^(١)

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
خَلُّوا، فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

...

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ
أَعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ

حتى دخلوا مكة، آمنين محلقيين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد.

وصدق الوعد الحق:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الزُّبَيْرُ يَا نَحْيَطُ
لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ أَحْرَافاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ زُؤُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ ^(٢)

(١) ابن إسحاق في السيرة: ١٣/٤، وابن سعد في الطبقات ٨٨/٢، وتخرجه في (فتح الباري: ٣٥١/٧).

(٢) آية ٢٧: سورة الفتح.

وهتفوا في صوت واحد ملين:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك».
فتجاوبت أرجاء «مكة» بالهتاف المؤمن، ومادت الأرض تحت أقدام
المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام، وأحسوا كأن الجبال
الشمّ الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم:
«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده،
وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

فما بقى مكى إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد
قريب..

وكان للمشهد المهيّب أثره في مكة وأهلها.
فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة ترنو إلى الركب النبوى وغاية
أمانيتها أن تغدو أمّا للمؤمنين.

تلك كانت «برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية»
إحدى الأخوات التى قال فيهن رسول الله ﷺ: «الأخوات
مؤمنات»^(١).

شقيقتها «أم الفضل» لبابة الكبرى بنت الحارث، زوج العباس بن
عبد المطلب وأم بنيه، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام.
وأخوات برة لأُمها:

(١) انظرهن في الطبقات الكبرى ٢٤٩/٨ وجمع الزوائد: ك المناقب ٢٤٩/٩.

«أسماء بنت عميس الخثعمية» زوج جعفر بن أبي طالب ذى الجناحين، أم ابنه عبد الله، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدًا، وخلف عليها الإمام علي بن أبي طالب فولدت له يحيى، رضى الله عنهم .

و«سلمى بنت عميس» زوج حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وشهيد أحد، وأم بنته «أمانة» التى زوجها المصطفى ﷺ ربيبه سلمة. وأختهن لأُمهن، زينب بنت خزيمة العامرية أم المساكين وأم المؤمنين. أمهن جميعًا هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، التى كان يقال فيها: «أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا هند بنت عوف: أصهارها، رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما، وجعفر وعلى ابنا أبي طالب رضى الله عنهما».

وكان لهند غير هؤلاء، أصهار آخرون من ذوى المكانة: الوليد بن المغيرة المخزومى، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث، أم خالد. وإبي بن خلف الجمحى، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث، أم أبان، وزباد بن عبد الله بن مالك الهلالى، زوج عزة بنت الحارث. وللبابة، وعصماء، وعزة، بنات الحارث، شقيقات لبرة^(١).

كانت «برة» وقتئذ أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى^(٢).

(١) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث): السيرة ١٩٦/٤، والمحرر ١٠٧، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢، وعيون الأثر ٣٠٨/٢ والسمط الثمين ١١٣.

(٢) هذه رواية ابن إسحاق فى السيرة ١٩٦/٤ - والاستيعاب. قابل على تاريخ الطبرى: ١٧٨/٣ - والاستيعاب، والإصابة والسمط الثمين ١١٥.

وكانت «برة» قد جعلت أمرها إلى شقيقتها «أم الفضل» فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس، وجعلت له أمرها فأنكحها النبي ﷺ ولياً عنها وأصدقها عنه أربعائة درهم، وسماها ﷺ «ميمونة».

وفي رواية عن الزهري أنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى فيها:

﴿وَأَمْرَأةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

قال السهيلي: «لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير، رمت بنفسها من على البعير وقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ».

ولم يرد اسم «ميمونة» رضى الله عنها في تفسير البخارى لآية الأحزاب (٥٠) وأُسند فيها عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما نزل الله تعالى: ﴿ترجى مَن تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء﴾ - الآية ٥١ - قلت: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك» خرّجه الحافظ ابن حجر من مختلف طرقه وبمختلف رواياته وأسماء الواهبات، ثم قال: «والمراد أنه ﷺ، لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى: ﴿ترجى من تشاء منهن﴾.. والمحفوظ أنه ﷺ لم يدخل بأحد من الواهبات كما تقدم (فتح البارى ٣٧٢/٨).

(١) السيرة: ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤. والإصابة ١٩٢/٨، وعيون الأثر كلهم عن الزهري. والآية من سورة الأحزاب، رقم ٥٠.

كانت الأيام الثلاثة التي نص عليها عهد الحديبية^(١)، قد قاربت نهايتها، فودّ المصطفى لو يمهلُه المكيون ريثما يتم الزواج، فيكسب بهذا الإمهال مزيداً من الوقت، ليتمكن للإسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون عناداً وحسداً...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه في العهد، قال مسالماً:

«ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟!»

لكن رسول قريش، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائفة، إذا امتد مقامه بها أياماً أخريات.

رداً في جفاء: «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا»^(٢).

فنزل على كلمتهما وفاءً بعهد، وأذن في المسلمين بالرحيل مُخلفاً مولاه «أبا رافع» بمكة، ليلحق به في صحبة «ميمونة».

(١) نص العهد على أن يرجع وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ، السنة السادسة للهجرة، ثم يدخلها بأصحابه في عام قابل، فيقيموا بها ثلاثة أيام.

طبقات ابن سعد: ٧٠/٢. مع (اللؤلؤ والمرجان، ك الجهاد، باب الحديبية).

(٢) السيرة: ١٤/٤ وطبقات ابن سعد ٨٨/٢ وتاريخ الطبري: ١٠٠/٣، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ١٤٨/٢.

البقعة المباركة

وفي «سرف» قرب التنعيم، على بريد من مكة، جاءت «ميمونة»
يصحبها مولى النبي عليه الصلاة والسلام..

فبنى بها ﷺ في شوال من سنة سبع، ثم انصرف بها راجعا إلى «المدينة».
وسأها، رضى الله عنها: «ميمونة».

أن كان زواجه بها في المناسبة الميمونة الغراء، التي دخل فيها أم
القرى، لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين لا يخافون..

ودخلت «ميمونة» بيت النبي مسالمة، قد اكتفت من دنياها بما من الله
عليها به من نعمة الإسلام، وشرف الزواج بالنبي الكريم عليه الصلاة
والسلام.

وما من ريب في أن الغيرة أخذتها من «عائشة» ثم من «مارية»: أن
استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان
لثانية شرف أمومتها لإبراهيم.

ولعلها كذلك لم تقاوم عاطفة الجماعة، حين تجمع الغيرة بنساء النبي
وهي منهن.

لكن مؤرخي الإسلام وكتاب السيرة، لا يذكرون لها، فيما عدا ذلك،
حادثة خصومة انفردت بها، أو شجارا شبّهت في البيت المحمدي.

(١) السيرة: ١٤/٤ - وتاريخ الطبري: ١٠١/٣ - والاستيعاب: ١٩١٨/٤ ووفاء الوفا
للسمهودي: ٣١٦/١.

وفي الصحيحين أنه ﷺ كان في بيتها حين اشتد به الوجع في مرض الموت، فرضيت أن ينتقل ليمرضَ حيث أحب، في بيت عائشة.

* * *

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى، عاشت «ميمونة» تذكر اليوم الميمون الذي جمعها بخير البشر، وتحن إلى البقعة المباركة في «سرف» حيث بنى بها..

وقد أوصت أن تدفن في موضع قبتها هناك، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين، على الأرجح، صلى عليها ابنُ أختها عبد الله بن عباس، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها. حتى أرقدوها حيث أحببت...^(١)

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة..

حدث ابنُ أختها «يزيد بن الأصم العامري» قال:

«تلقيت عائشة من مكة، أنا وابنُ لطلحة من أختها، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه.. فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه، ثم أقبلت عليّ فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك في بيت من بيوت نبيّه؟.. ذهبْتُ والله ميمونة،

(١) لا خلاف في مدفنها في موضع قبتها بسرف، لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاتها. نقل ابن سعد عن الواقدي أنها ماتت سنة إحدى وستين. وقال ابن عبد البر: سنة إحدى وخمسين، وقال ابن حجر: هو الأثبت. وتعقب قول الواقدي فوهه فيه مستدلاً بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضى الله عنها. ولم يذكر ابن سيد الناس في وفاتها غير سنة إحدى وخمسين، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٣٠٩/٢).

وَرُمِيَ بِحِيلِكَ عَلَى غَارِبِكَ. أَمَا أَنهَا كَانَتْ وَاللَّهِ مِنْ أَتْقَانَا لِلَّهِ، وَأَوْصَلْنَا
لِلرَّحْمِ»^(١).

سلام على ميمونة..

وسلام على نساء النبي ﷺ، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات بسنده إلى يزيد، وابن حجر في ترجمتها بالإصابة، من طريق ابن سعد.

مارية القبطية

أم إبراهيم عليه السلام

«إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها
القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم
ذمة ورحما»

رسول الله صلى الله عليه وسلم

(صحيح مسلم)

باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم
بأهل مصر

هدية من مصر

غير بعيد من بيت النبي، في منزل خاص بعوالى المدينة، كانت تقيم سرية للنبي ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابنه إبراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها، مثلهن، بشرف الصحبة.

وهى لم تقم في حجرات النبي الملحقة بالمسجد، إلا أن أثرها في هذه الحجرات وساكناتها كان جد بعيد.

فمن تكون هذه السرية؟ وكيف دخلت حياته ﷺ؟ وأى موضع كان لها في هذه الحياة؟

في قرية عتيقة من صعيد مصر، تدعى «حَفَن» من كورة «أَنْصَا»^(١) الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين، ولدت «مارية بنت شمعون» لأب قبطى، وأم مسيحية رومية.

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل في مطلع شبائها الباكر مع أختها «سيرين» إلى قصر «المقوقس عظيم القبط ملك الإسكندرية».

(١) الضبط عن أبى عبيد البكرى في معجم ما استعجم وفيه: ويقال إن سحرة فرعون كانوا منها، وأنه جلبهم منها يوم الموعد. وهى واقعة في شرق النيل وكانت حسة البساتين والمنتزهات كثيرة الثمار والفواكه، نقله التقي المقرئى، وقال أبو حنيفة الدينورى: ولا ينبت البِنْجُ إلا بأنصا وهو عود ينشر منه ألواح السفن (خطط المقرئى ٢٠٤/١).
وللشاعر حنفى ناصف بحث في (موطن مارية القبطية من الديار المصرية) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين في أثينا سنة ١٩٦٥. وانظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى: (القسم الأول، البلاد المتدربة: أنصاء ص ١٣٢) ط دار الكتب المصرية.

وقد سمعت هنالك بظهور نبي في جزيرة العرب يدعو إلى دين سماوى جديد. وكانت في القصر حين وفد «حاطب بن أبى بلتعة»^(١) رضى الله عنه، موفداً من هذا النبي العربى، يحمل رسالة إلى المقوقس. وأذن له في الدخول، فأدى الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)».

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه في عناية وتوقير، ووضعه في حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه.

والتفت من بعد ذلك إلى «حاطب» يسأله أن يحدثه عن النبي العربى ويصفه له، فلما فعل، فكر المقوقس ملياً ثم قال لحاطب:

«قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب... ولكن القبط لا تطاوعنى» وضحَّ بملكه أن يفارقه.

(١) من البدرين. وكان أحد الستة الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام في محرم سنة سبع بعد فتح خيبر: السيرة ٢٥٤/٤، طبقات ابن سعد ٢٥٨/١، تاريخ الطبرى ٨٤/٤ مع ترجمة حاطب رضى الله عنه، في (الاستيعاب: رقم ٤٥٧) ومارية، رضى الله عنها في نساء الاستيعاب ٤٠٩١، ونساء الإصابة ٩٧٩.

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده :

«... أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك، وبعت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وكسوة ومطية لتركبها، والسلام عليك»^(١).

ودفع «الموقس» كتابه إلى «حاطب» معذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم، وموصيا إياه بأن يكتم ما دار بينهما، فلا يسمع القبط منه حرفاً واحداً.

وانطلق «حاطب» عائداً إلى النبي ﷺ، ومعه «مارية» وأختها «سيرين» وعبد خصى، وألف مثقال ذهباً، وعشرون ثوباً لينا من نسج مصر، وبغلة شهباء «دلدل» وجانب من عسل «بها» وبعض العود والند والمسك.

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن، فسارتا تملآن أعينهما من الوادى الحبيب، حتى إذا غابت عنها آخر معالهما، ألقتا نظرة وداع، على الأرض التى حُلَّتْ فيها تسمائهما، ودرج عليها صباهما.

وأحس «حاطب» ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها، ثم انثنى يتحدث عن النبي ﷺ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب، فأخذت

(١) تاريخ الطبرى ٨٥/٣، والمحبر ٩٨، وعيون الأثر ٢/٢٦٦ والنقل منه، وفى الهدية، عند ابن سعد (٢٦٠/١) الحمار عفير، أوعفور حكاه ابن حجر فى ترجمة مارية بالإصابة.

الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للإسلام ونبهه الكريم عليه الصلاة والسلام.

واستغرقهما التفكير في الحياة الجديدة التي توشك أن تستقبلهما، وفي السيد النبی الذي ينتظر في «المدينة» رجوع صاحبه «حاطب» بجواب المقوقس. وفي الإصابة من طريق ابن سعد، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه، فأسلمت هي وأختها.

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبي ﷺ من «الحديبية» بعد أن عقد الهدنة مع قريش.

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس، وهدية مصر..

وأعجبه «مارية» فاكفى بها، ووهب أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت» فهي أم ولده عبد الرحمن.

وطار النبأ إلى دور النبي، أن شابة مصرية حلوة، جعدة الشعر جذابة الملامح، قد جاءت من أرض النيل هدية للنبي ﷺ فأنزلها بمنزل لحرثة ابن النعمان الأنصارى، قرب المسجد النبوى.

وتكلفت عائشة» ما استطاعت من جهد، لكى تعلل نفسها بالألّا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة، أهداها سيد إلى سيد.

لكنها راحت ترقب في كثير من القلق، مظاهر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بتلك المصرية الطارئة، وقد غاظها أن تراه صلى الله عليه وسلم

يكثر من التردد عليها، ويمكث لديها طويلا « فكان عامة الليل والنهار عندها » في ساعات فراغه^(١).

وفي رواية للواقدي بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب بمارية القبطية، وكانت بيضاء جعدة جميلة، فأنزلها وأختها على أم سليم بنت ملحان، فدخل عليهما يعرض عليهما الإسلام فأسلمتا. وحوّلها إلى مال له بالعالية، ووهب أختها سيرين، حسان بن ثابت^(٢).



(١) أسنده ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة، ورواه ابن حجر في الإصابة من طريق ابن سعد.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/١٣٤.

طيفٌ وأمل

مضى عام أو نحو من عام، و«مارية» سعيدة بحظوتها لدى السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام، قد اطمأن بها المقام في كنفه، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين.

وانحصرت أمانيتها وخواطرها، بل انحصر وجودها كله في شخص ذلك السيد العظيم الذى ربطها القدر به على غير ميعاد، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه.

وكانت تحمل في كيانها سحر مصر، وفي أعطافها أريج الوادى العطر، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة، لإيزيس في حبها العبرى، ونفرتيتى في جمالها الباهر، وحتشبسوت في ملكها العتيد، وكيلوباتره في جاذبيتها الآسرة..

ولم يَغض ذلك التبع الدافق الذى كان يمدها في كل آن بعذب الحديث وشهى السمر، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة «هاجر» زميلتها المصرية التى جاءت من أرض النيل، وحملت من سيدها «إبراهيم» فأثارت غيرة زوجته السيدة «سارة» فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق، حيث تركها هنالك: وحيدتين بوادٍ غير ذى زرع عند أطلال البيت العتيق.

وطالما شاق «مارية» أن تسمع الحديث عن نجدة الساء التى فجّرت لهاجر زمزم، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة، وكيف عاشت «هاجر» ملء التاريخ، وصار مسعاها مهرولةً بين

الصفاء والمروة، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

وألقت «مارية» حين كانت تخلو بنفسها، أن تفكر في «هاجر» ومصريتها وأمومتها لإسماعيل وللعرب، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها: فكلتاها جارية مصرية، وكانت «هاجر» هبة من سارة للنبي إبراهيم عليه السلام، كما أن «مارية» هبة من المقوقس للنبي محمد ﷺ وقد أثارت كلتاها غيرة الزوجات الشرعيات في بيت السيد النبي إبراهيم، أو محمد، صلوات الله عليهما.

ما أبعد الأمنية، بل ما أدناها من المستحيل!..

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة، عشر زوجات، منهن الشابة الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد. ولكن أرحامهن جميعاً أمسكت فما تجود بولدٍ واحد للنبي الذي تخطف الموت أبناءه من خديجة، فلم يدع له سوى ابنة واحدة، هي السيدة «فاطمة الزهراء».

وقد شارف الستين من عمره، وبدأ كأنه كفَّ عن تمني الولد، بعد سنين مجدبة، مع زوجات ذوات عدد.

فأتى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل؟
يا لها من أمنية أبعد من الوهم، ويا له من أمل أوهى من السراب!

بُشْرَى

استقبلت «مارية» عامها الثانى فى حياة النبى ﷺ، وما تكفّ عن ذكر هاجر وإسماعيل، وإبراهيم.

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها، وخيل إليها أن الأمر لا يعدو أن يكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الأمومة، وتفكيرها الدائم فى هاجر وإسماعيل.

وكنمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام.. حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تنهم.

هنالك أفضت به إلى أختها «سيرين» فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهم ولا شبه وهم، وإنما هو جنين حى.

وأخذ «مارية» من الانفعال والفرح ما قَرُبَ وما بَعُدَ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها، وتحقق أملها الذى بدا عقيبا واهيا كالسراب.

واستغرقتها نشوة حاملة، حتى جاء السيد الرسول ﷺ، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها.

وتذكر عليه الصلاة والسلام ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام، وهى أعراض عرفها من قبل فى «خديجة» فى مستهل كل حمل، لكنه حسبها فى «مارية» وعكة طارئة لاتلبث أن تزول. ورفع إلى السماء وجهها مشرق الأسارير يشكر خالقه ذاك العزاء

الجميل الذى من به على عبده الرسول، إثر فقد ابنته الغالية «زينب»
بعد أن ماتت قبلها رقية، وأم كلثوم، ومات عبدالله، والقاسم...
سبحانه، جلّت قدرته وعظمت آياته، ووسعت رحمته عبده المصطفى،
ﷺ، كما وسعت من قبله، عبديه إبراهيم وزكريا عليهما السلام.
قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ① إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ② فَوَاحٍ
لِأَهْلِيهِ فُجَاءَ بِجِلِّيٍّ ③ فَفَزِعْنَاهُ وَلَمَّا قَالَ إِنَّا أَنَا كُودُونَ ④
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ⑤ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوا بَعْضُهُمْ أَلْيَوْمِ ⑥
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ فِي صَرْدٍ فَصَافَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيْبٌ ⑦ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ⑧﴾

ومن آياته تعالى فى زكريا والبشرى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلاٌّ مَكَانِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ
بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ① قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ
وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ نَشَاءُ ②﴾

لكن «مارية» لم تكن عجوزًا، كما لم يكن المصطفى عقيماً قد بلغ من
الكبر عتياً.

وفاض عالمها المشترك بالهناء والغبطة.

وسرعان ما سرت البشرى فى أنحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر

(١) سورة الذاريات: الآيات: ٢٤ - ٣٠.

(٢) سورة مريم: الآيتان ٨، ٩.

مولوداً له من «مارية المصرية» وما بقارئ حاجة إلى أن تصور له وقعها على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم.

أتحمل هذه الغريبة الطارئة، ولما يرض عليها في المدينة سوى عام واحد، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل؟...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى، وأمهاة المؤمنين، وفيهن بنتا أبي بكر وعمر، وبنت زاد الרכ، وحفيدة أبي طالب، محرومات لا يلدن؟

روى ابن سعد من طريق الواقدي: «أن رسول الله ﷺ حجب مارية، وكانت قد ثقلت على نسائه، وغرنَ عليها، ولا مثل عائشة»^(١).

ونقلها ﷺ إلى «العالية» بضواحي المدينة، توفيراً لراحتها وسلامتها، وعناية بصحة جنينها.

وسهر عليها يرعاها، وكذلك فعلت أختها «سیرین» حتى بلغ الجنين أجله، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، ودعا ﷺ قابلتها «سلمى: زوج أبي رافع» ثم انتحى ناحية من الدار، يصلى ويدعو...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى^(٢) أكرمها كل الإكرام، وخفَّ إلى مارية فهنأها بولدها الذي أعتقها من الرق، ثم حمل وليده بين يديه في غبطة وسماه «إبراهيم» تيمناً باسم جد الأنبياء^(٣) عليهم السلام.

(١) الطبقات الكبرى، ترجمة إبراهيم عليه السلام (١/١٣٥).

(٢) وفي رواية أن الذي حمل البشري إلى النبي ﷺ مولاه أبو رافع زوج سلمى: ابن سعد ١٣٦/١، السمت: ١٤٠ - وانظر الاستيعاب: ٥٤/١.

(٣) السمت الثمين: ١٤٢ - وانظر الاستيعاب: ١٩١٣/٤.

وتصدق ﷺ على فقراء المدينة بوزن شعر الوليد ورقا، وتنافس
نساء الأنصار أيتهن ترضعه، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبي ﷺ لما
يعلمون من هواه فيها، فاخترار مرضع ولده، وجعل في حيازتها قطعة من
الماعز كي ترضعه لبنها إذا شح ثديها^(١).

وراح يرقب نموه يوماً بعد يوم، ويجد فيه أنسه ومسرته، ويود لو
شاركته دنياه كلها في هذا الأنس.

حمله يوماً بين ذراعيه إلى «عائشة» ودعاها في تلطف وبشر، لترى
ما في الصغير من ملامح أبيه، فبلغ من شدة قهرها أن كادت تبكي
مما تجد.

وأدرك المصطفى صلوات الله عليه مدى ما تكابد، فانصرف بولده
وهو يرثى لعائشة...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجميل والتكلف والمدارة، حتى كان
اليوم الذي اجتمع فيه ﷺ بمارية في بيت «حفصة» فاندلع الضرام من
تحت الرماد متوهجاً، وكان ما كان من قصة التحريم.

وخيل لمارية أنها بلغت مناهها، فهذه هي تلد للنبي ﷺ ولداً كما ولدت
«هاجر» لإبراهيم ابنه إسما عيل عليهما السلام.

وهذه هي محنة الغيرة تنتهي على خير لها.

ولم يسعد «مارية» شيء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى ﷺ

(١) في (صحيح مسلم، ك الفضائل: ح ٢٣١٥) أنها «أم سيف» امرأة أبي سيف، قين بالمدينة.
وفي رواية للواقدي أنها أم بردة بنت المنذر الأنصارية (١٣٦/١) وانظر الإصابة لابن حجر:
ج ١ والاستيعاب: ٥٥/١ وفي رواية أنه ﷺ خلق رأس ولده يوم سابعه، وتصدق بزنة شعره
فضة، وذبح كبشين «وفاء الوفاء: ٣١٦/١».

على اليأس غلاماً تقرّ به عينه، ويتعزّى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها.

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبي ﷺ:

في (الإصابة) من حديث عمرة، بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «ما غرّت على امرأة إلا دون ما غرّت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان، الأنصاري، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها.. فجزعت فحوّها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا» زادت في رواية: «ثم رزقها الله الولد وحرّمناه منه»^(١).

على أن غيرة أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن، لم تنل من «مارية» ما نالته شائعة سوء أرجف بها مرجفون من أهل المدينة، عن العبد «مابور» الذى جاء معها من مصر في هدية المقوقس «وكان يأوى إليها لخدمتها ويأتيها بالخطب والماء. فقال ناس، لا يتقون الله، علج يدخل على علجة».

ولم يتخل الله تعالى عنها في محنتها، بل أتاح لها دليلاً قاطعاً على براءتها من الريبة، في حديث عن أنس رضى الله عنه؛ أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه، كتاب التوبة، باب براءة حرم النبي ﷺ - أم ولده إبراهيم - من الريبة) كما أخرجه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، في ترجمتها بالاستيعاب .

(١) وانظر مع ترجمة مارية وإبراهيم، عليها السلام، الاستيعاب والإصابة، مناقب إبراهيم عليه السلام في (مجمع الزوائد: ١٦١/٩ - ١٦٢).

الهلألُ الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام، ثم كانت المحنة الفادحة والشكل المرير.

مرض «إبراهيم» ولما يبلغ عامين من عمره، فجزعت أمه ودعت إليها أختها، وقامتَا ساهرتين حول فراشه ترمضانه ونفساهما تذوبان عليه من لفة وقلق، لكن الحياة أخذت تنطفئ فيه رويدًا رويدًا... فجاء أبوه معتمدًا على يد «عبد الرحمن بن عوف» لشدة ألمه، فحمل صغيره من ججر أمه وهو يجود بنفسه، ووضعه في حجره محزون القلب لا يملك إلا أن يقول في أسى وتسليم:

«إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً» ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع حشجة احتضاره، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة.

عن «أنس بن مالك» رضى الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على «أبي سيف، القين» وكان ظنًّا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشَّمه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيمُ يجود بنفسه. فجعلت عينا رسول الله ﷺ تدمعان فقال له عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يا ابن عوف، إنها رحمة» ثم أتبعها أخرى فقال ﷺ: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

(١) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه. والنقل من (اللوئوك الفضائل ح ١٤٩٥).

توفي عليه السلام لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة الأرجح^(١).

وانحنى الأب الثاكل على جثمان فقيده والدمع يفيض من عينيه، ثم تمالك نفسه وقال: «يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك حزنا هو أشد من هذا. وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»^(٢).

ثم نظر إلى مارية في عطف وثناء، وقال يواسيها: «إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدى، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»^(٣). وأقبل ابن عمه عليه السلام «الفضل بن عباس» فغسل الصغير الميت، وأبوه، عليه الصلاة والسلام جالس يرنو إليه في حزن.

وحمل من بيت ظئره على سرير صغير وصلى عليه أبوه، عليه السلام وكبر أربعاً. ثم سار وراءه إلى البقيع، وأضجعه بيده في قبره، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء^(٤).

وآب المشيعون من البقيع واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، فقال قائلهم: «إنها انكسفت لموت إبراهيم».

(١) طبقات ابن سعد، ولا خلاف في أنه عليه السلام ولد سنة ثمان (فتح الباري: ١١٣/٣).

(٢) الاستيعاب: ٥٦/١ - والنقل منه - والإصابة: إبراهيم بن محمد، عليه السلام. والسمط الثمين ١٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح في كتاب الفضائل: ١٨٠٨/٤ (ح ٢٣١٦) وانظر (فتح الباري: ١١٣/٣).

(٤) طبقات ابن سعد: ١٤١/١، عيون الأثر ٢٩١/٢ - والنقل منها - والاستيعاب من طريق الواقدي ٥٦/١.

وبلغت الكلمة مسمع النبي ﷺ، فصلى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم، قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»^(١).

وطوى جرحه في قلبه الكبير صابراً مستسلماً لقضاء الله فيه، واعتكفت «مارية» في بيتها تحاول أن تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح في قلب السيد الرسول ﷺ، فإذا عزَّ الصبر خرجت إلى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها، والتمست راحة في البكاء.

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت «إبراهيم» في السنة العاشرة للهجرة، فما استهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا ﷺ، ثم لحق بربه الأعلى، وترك «مارية» من بعده تعيش خمس سنوات في عزلة عن الناس، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين، ولا تكاد تخرج إلا لكي تزور مثنوى الحبيب بالمسجد النبوي، أو قبر ولدها بالبقيع.

فلما ماتت سنة ستة عشر من الهجرة «أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع»^(٢).

* * *

(١) متفق عليه من عدة طرق بألفاظ متقاربة (اللؤلؤ والمرجان: ك الكسوف).

(٢) ترجمتها رضى الله عنها في الطبقات والاستيعاب والإصابة.

وصية النبي عليه الصلاة والسلام بأهل مصر

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فحسبُ «مارية» أنها دخلت في حياة النبي ﷺ، وأن أثرها الله تعالى بأمومتها لإبراهيم عليه السلام. وارتبطت ذكراها بذكرى هاجر في وعى التاريخ وضمير الأمة، ورجعت الأجيال ما بينها من صلة حميمة، منذ جاءتا الحجاز، فتاتين من مصر، هديتين من ملكها: هاجر أم ولد إبراهيم عليه السلام، ومارية أم ولد محمد ﷺ. ولعل أول من ربط بين مارية وهاجر، سيدنا محمد ﷺ، في وصيته بأهل مصر محفوظة موثقة، مدونة في صحاح الحديث في (باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر).

بعنوان هذا الباب، أخرج مسلم في (الصحيح) من طريقين، حديث أبي ذر الغفاري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما - أو قال: ذمة وصهرا». وفى رواية: «استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا». النسب من جهة هاجر أم «إسماعيل عليه السلام، جد العرب العدنانية. والصهر من جهة مارية القبطية أم إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم». ففى أهل مصر، خنولة ولد إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

(١) صحيح مسلم: ك الفضائل باب (وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر).

وتداول الحفاظ حديث الوصية النبوية بأهل مصر، فرواها «أبو يعلى الموصلى» فى مسنده، و«أبو القاسم الطبرانى» فى معجمه الكبير وخرَّجها «نورالدين الهيثمى» فى مجمع الزوائد.

وقد فُتِحَتْ مصرُ سنة عشرين للهجرة بعد تسع سنين من وفاة المصطفى ﷺ، فكانت الوصية من وثائق الفتح: ذكرها «عمرو بن العاص، رضى الله عنه» فى مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبى المقوقس، قال لهما فيما قال: «وقد أعلمنا، نبينا ﷺ، أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم، حفظاً لرحمنا فيكم، وأن لكم، إن أجبتونا ذمةً إلى ذمة، ومما عهد إلينا أمير المؤمنين: استوصوا بالقبطيين خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً لأن لهم رحماً وصهرًا»^(١)..

وأخرج مؤرخو مصر الإسلامية، حديث الوصية فى كتب (فتوح مصر وفضائلها) فأخرجها من عدة طرق ابنُ عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فى مستهل كتابه (فتوح مصر) والربيعُ الجيزى فى (من دخل مصر من الصحابة، رضى الله عنهم).

ثم من بعدهما من المؤرخين الحفاظ من: أبى جعفر الطحاوى، وابن يونس الصدفى فى تاريخهما الكبيرين، إلى التقي المقرئى فى (الخطط) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) والجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة).

ودخل حديث الوصية فى كتب الدلائل، أذكر منها (دلائل النبوة لأبى بكر البيهقى، ولأبى نعيم الأصبهاني).

وكذلك أخذت بلدة (حَفْن، من كورة أنصنا) الأثرية القديمة من صعيد مصر موضعها من كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين.

في (النجوم الزاهرة: ٢٩/١) عن ابن كثير:

«وقد وضع عنهم - أهل حَفْن من كورة أنصنا - معاويةُ بن أبي سفيان الجزية إكراماً لإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من مارية القبطية. قال ياقوت في (حفن) من معجم البلدان: وكَلَّمَ الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية لأهل حَفْن فوضع عنهم معاوية خراج الأرض».

ويقال إن «عبادة بن الصامت الأنصاري» رضي الله عنه، وكان ممن شهد فتح مصر بحث عن تلك البلدة وسأل عن موضع بيت مارية بها، فبنى به مسجداً.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﷺ

صدق الله العظيم